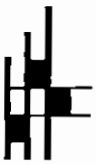

الباب السابع
خريطة الطريق للتغيير البناء

لم يكن «الربيع العربي» كما زعم بعض الكتاب مؤامرة. لقد كان تلبية لأشواق حقيقية للحرية، والعدالة، والرخاء، والكرامة وإن حالت ظروف دون تحقيق أهدافه كما تطلع إليها الثوار.

وليست داعش وأخواتها مؤامرة كما جاء على لسان كثيرين ومنهم السيدة فردريكا موغيرين[1] مسؤولة الاتحاد الأوربي للخارجية. قالت في ٢٤/٦/ ٢٠١٥م: «أشك أن داعش مؤامرة ضد الإسلام نفسه وهي مخطط قوي لشيطنة الإسلام وتبرير ضربه».

«الربيع العربي» وداعش أجندتان مختلفتان منطلقتان من التمرد على واقع واحد فقد جدواه وقدرته على الاستمرار، فصار يشد إليه أجندات الإطاحة بالقفز إلى الأمام في حالة الربيع العربي. وبالقفز إلى الوراء في حالة داعش وأخواتها.

ولكي نحقق تغييراً بناءاً يزيل واقعاً فقد صلاحيته للبقاء ينبغي أن تشهد المنطقة يقظة فكرية، وصحوة دينية، ومعرفة عصرية.

ولكي أقدم اجتهاداً في هذا المجال ينبغي أن أقدم للرأي العام المعني بهذه القضية أوراق اعتمادي. إذ يحق أن يقول لي قائل إنك كإمام لحركة مهدية في السودان لست مؤهلاً للحديث عن بناء المستقبل لأن ارتباطك بهذا التراث يجعلك جزءاً من المشكلة لا من الحل.

(١) فيديريكا موغيريني **Federica Mogherini** (ولدت يونيو ١٩٧٣م): سياسية و دبلوماسية إيطالية، شغلت سابقا منصب وزيرة خارجية إيطاليا، وتشغل حالياً منصب الممثل الأعلى لسياسة الأمن والشؤون الخارجية في الإتحاد الأوروبي.

نعم الفهم التقليدي لتراثي يجعله جزءاً من المشكلة لا من حلها.

أقول موضحاً:

التطلع لمخلص تطلع وارد في كل فرق الشيعة، فإن شخصاً غاب قبل ١٤ قرن لن يعود مرة أخرى فالوحي الثابت جاء فيه: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِين مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾[١]. وهو تطلع وارد لدى السنة. لا فائدة في دعوة للخلاص يأتي صاحبها في آخر الزمان لأن ثوابت الوحي تقول: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾[٢].

وفي نصوص الوحي ما يعد بمعنى الخلاص. قال تعالى: ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾[٣] وقال: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾[٤]. ومواصلة لأبحاثي غصت في الأقوال الصحيحة المنسوبة للإمام المهدي في السودان ووصلت للحقائق الآتية:

أولاً: إن دافعه الحقيقي للدعوة هو الغيرة على حرم الله. قال: «حيث أنه لم يبق من الإسلام إلا رسمه. ومن القرآن إلا اسمه حصلت الغيرة. وغيرة المؤمن على حرم الله أكبر من غيرته على حرمه».

ثانياً: وقال: «إني مأمور بإحياء الكتاب والسنة المقبورين حتى يستقيما».

ثالثاً: ولدى التضارب حول معاني أقواله وضع أساساً لغربلتها قائلا: «ما

(١) سورة الأنبياء الآيتان (٣٤، ٣٥).
(٢) سورة الأنعام الآية (١٨٥).
(٣) سورة الأنعام الآية (٨٩).
(٤) سورة آل عمران الآية (١٠٤).

جاءكم منسوباً إليّ إذا وجدتموه مخالفاً للكتاب والسنة فاضربوا به عرض الحائط».

رابعاً: تخلى عن أية قدسية لاجتهادات البشر والتمذهب خارج مقتضى النصوص بقوله: «قولوا طريقتنا لا إله إلا الله ومذهبنا الكتاب والسنة. ما جاء من عند الله على رؤوسنا. وما جاء من عند النبي ﷺ على رقابنا. وما جاء من الصحابة إن شئنا عملنا به وإن شئنا تركناه».

خامساً: قال في أمر الثوابت الدينية: «إن أمرنا هذا تبع لا بدع».

سادساً: وفي أمر العادات والمعاملات قال: «لا تعرضوا لي بنصوصكم وعلومكم على المتقدمين. فلكل وقت ومقام حال. ولكل زمان وأوان رجال».

سابعاً: وكان أوثق ما جعله هداية روحية مناجاة لرب العالمين راتباً وجه بقراءته في أوقات الاستجابة بعد الفجر وقبل الغروب، ثم يقرأ بعده حزباً من القرآن مبيناً أن أوقات الاستجابة هذه هي: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ [1]. هذا الراتب آية في التجرد لا يذكر فيه اسمه ولا مكانته فليست فيه ذاتية ولا طائفية بل خلاصة لتراث الإسلام الروحي يصلح أن يتخذه كل مؤمن نصاً لمناجاة روحية لا مثيل لها في التجرد والتواضع للذات الإلهية.

الراتب ثلثه آيات قرآنية مختارة، وفي غير الآيات أسلوبه مضمن للتعابير القرآنية. والنص فيه مناجاة عبودية لله، ومحبة لذاته، واتباع للنبي محمد ﷺ، لا يذكر فيه ولاء لشخص، ولا لجماعة، ولا يرد فيه طلب إلا المغفرة لقارئه، والخشوع في الصلوات، والشوق للقاء رب العالمين.

إنه نص مناجاة مستصحب لدعوات المرسلين، صالح ليناجي به أي مؤمن

(١) سورة ق الآية (٣٩).

دون إيجاب ولاية لشخص أو لجماعة. نصه تجسيد لعبقرية المناجاة.

ثامناً: نعم أسس دعوته على مخاطبة غيبية قائلاً: «المخاطبة النبوية تعتبر أمراً مفتوحاً لكل أهل الكشف» أي أنها من دروب الوصال الروحي المطروق للصالحين. هذه المعاني المتعلقة بقوله: «أخبرني النبي ﷺ» واردة في تراثنا الروحي كله، وإن أنكرها الظاهريون فقد أثبتها غيرهم. قال الإمام الغزالي[1] في كتابه «المنقذ من الضلال» متحدثاً عن الصالحين: «إنهم يصلون حالة تبتدئ المكاشفات والمشاهدات حتى أنهم في يقظتهم يشاهدون الملائكة وأرواح الأنبياء ويسمعون منهم أصواتاً ويقتبسون منهم فوائد». هذه المعاني أكدها السيوطي[2] في كتابه: «تنوير الحلك في إمكان رؤية النبي والملك».

أما إمامتي فهي لا تقوم على خطاب غيبي، ولا على تأهيل وراثي بل على أساس انتخابي. انتخاب لم أسع إليه بل فرضتها قاعدة الأنصار الشعبية في مؤتمر السقاي في ديسمبر عام ٢٠٠٢مم لحماية الإمامة من مؤامرة حاكها عملاء نظام الحكم في البلاد للإتيان بإمامة مدجنة. وقبلت هذا التكليف المؤسس على رأي الجماعة وأدخلت في رابطة الولاء الشورى، والنصيحة، والالتزام بحقوق الإنسان، فصار العهد فيها آية من التوفيق بين التأصيل والتحديث.

وفي هذا الصدد أوضح أننا في عوالمنا العربية، والإسلامية، والأفريقية، والآسيوية نعمل على التحديث في المؤسسات الجديدة كالأحزاب السياسية، والنقابات، وغيرها، ولكن نترك مؤسسات المجتمع التقليدي كما هي، فالمؤسسات الدينية التقليدية كالطرق الصوفية، والقبائل، والأسر تترك كما هي:

(١)أبو حامد الغزّالي، (٤٥٠ هـ/ ١٠٥٨م - ٥٠٥ هـ/ ١١١١م) هو أبو حامد محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الغزّالي الطوسي النيسابوري الفقيه الصوفي الشافعي الأشعري. الملقب بحجة الإسلام، وأحد أشهر العلماء المسلمين.

(٢)جلال الدين السيوطي (٨٤٩ هـ/ ١٤٤٥ م- ٩١١ هـ/ ١٥٠٥ م)عبد الرحمن بن الكمال أبي بكر بن محمد سابق الدين الخضيري الأسيوطي، من أبرز علماء المسلمين، كان موسوعي المعارف.

الطريقة يتوارث قيادتها أسر معينة، وكذلك القبائل. والأسر تقوم على أسس أبوية تسترق المرأة ولا تراعي حقوق الأطفال. إن استمرار هذه المؤسسات دون إصلاح يجعلها حوافظ (ثيرموس) للماضي الاجتماعي، تجر المجتمع كله إلى الوراء.

لقد استطعنا تطوير هيئة شؤون الأنصار لكي تقوم على المشاركة، والمساءلة، والشفافية. وتبنت هيئة شؤون الأنصار إصلاحاً يزيل كافة وسائل التمييز ضد المرأة، ويطور قانون الأحوال الشخصية على أسس متطورة. ويرجى أن يمتد هذا الإصلاح للتكوينات القبلية، والطرق الصوفية؛ اقتداء بما حققته هيئة شؤون الأنصار. هذه الثورة الهادئة ضرورية لتحريك المجتمعات التقليدية من التمترس في أنماط ماضوية معلبة.

قال لي بعض الناس: كيف تقبل الجمع بين رئاسة حزب الأمة وقد عارضت عمك الإمام الهادي المهدي[1] ألا يجمع بين الإمامة والقيادة السياسية؟ هذا غير صحيح. لقد كان الإمام الهادي إمام الأنصار والتقليد الذي تركه الإمام عبد الرحمن[2] هو أن إمام الأنصار هو راعي حزب الأمة. ومن ضوابط هذه الرعاية حسب منشور أصدره الإمام عبد الرحمن في سبتمبر عام ١٩٥٠م أنه: يوقف «أي تدخل بين علاقة حزب الأمة في قراراته وأعماله كحزب سياسي وعلاقته بالأنصار إلا فيما يتصل بالتأييد الشعبي للمبدأ» مكتفياً برئاسة خليفته للحزب في اتصالاته التنفيذية به، وبالدعم المالي للحزب على أن «تحدد أعماله السياسية منفرداً عن وكالات الأنصار في المراكز الخارجية . وتلغي المذكرة الأخيرة التي تخول لي

(١) الهادي عبد الرحمن المهدي (١٩١٨- ٣١ مارس ١٩٧٠م)، الإمام، إمام الأنصار خلفاً لأخية الصديق في أكتوبر ١٩٦١م، استشهد في حوادث الكرمك بعد ضرب الجزيرة أبا واستشهاد وجرح الآلاف.

(٢) عبد الرحمن المهدي (الإمام) (٢٥ يونيو ١٨٨٥م- ٢٤ مارس ١٩٥٩م- أول شوال ١٣٠٢هجرية- ١٥ رمضان ١٣٧٨هـ): مؤسس حزب الأمة وباعث المهدية وإمام الأنصار منذ ١٩٤٩م وحتى وفاته.

حق الرفض في قرارات الحزب».

والخلاف الذي وقع في حزب الأمة في عام ١٩٦٦م لم يكن في الأصل حـول أن يكون للإمام دور سياسي ولا بسبب خلاف بيني وبينه. بل كان الخلاف بين رئيس الوزراء الممثل للحزب في الحكومة والهيئة البرلمانية التي انتخبته.

كان النواب يمارسون حقهم في مساءلة رئيس الوزراء الذي انتخبوه ولكن بعـد فترة من التعامل فقد ثقتهم فهموا بسحب الثقة منه. أسباب سـحب النـواب للثقـة فيه مدونة في تقرير اللجنة الحزبية المكلفة بالوسـاطة وأهمهـا: أن رئـيس الـوزراء يعاملهم باستعلاء، وأنـه يهمـل مطالـب دوائـرهم الانتخابيـة، وأنـه يعتبـر نفسـه مفروضا عليهم لا مختار بإرادتهم. ولكن بدل الامتثال لرأيهم بمـا ينبغـي، ويقـدم استقالته قال لهم: أنا لست مسؤولاً أمامكم بل أمام الإمام. وكان موقفي المبـدئي داعماً لرأي الهيئة البرلمانية بأنها هي التي تنتخب رئيس الوزراء وتساءله.

لقد انتخبت مجدداً لرئاسة حزب الأمة في أبريل عام ٢٠٠٣م وانتخبت إماماً في ديسمبر ٢٠٠٢م ومهما كان تحفظي على ذلك فقد قبلـت رأي الجماعـة ومنذئـذٍ مارسـت صـلاحياتي بانضـباط شـديد مراعيـاً صـلاحيات أجهـزة حـزب الأمـة الدستورية بلا ادعاء صلاحيات إمامية في أمر الحزب (لقد أزيل الـنص في دسـتور الحزب عـلى أن يكـون إمـام الأنصـار راعيـاً لـه منـذ مـؤتمره العـام الخـامس في ١٩٨٦م)؛ ومراعيـاً صـلاحيات الإمامـة كمـا في الـدليل الأساسـي لهيئـة شـئون الأنصار. وأقول حقاً وصدقاً إنني التزمت المؤسسية وأقول إن كـل مـن خالفنـا لم يخالفني شخصياً فقد بذلتُ للجميع حقوقهم واحترامهم والمخالفون إنما خالفوا المؤسسات لذلك ذهبت مواقفهم (هَبَاءً مَّنثُورًا) ظلموا أنفسهم وظلمونا ولكـن لم نظلم منهم أحداً.

بعد هذه المرافعة عن أوراق اعتمادي أخوض في استحقاقات المستقبل البناء.

نحن ننتمي إلى تراث معين وافد من الماضي. وبعضـنا يقـف عنـد حـده يفسـر

قوله تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾ [1] بـأن الحقيقـة الطبيعيـة والاجتماعيـة منصوص عليها في الكتاب، فما عدا ذلك من معارف الإنسان إمـا مطابقـة لمـا في الكتاب فلا حاجة لنا بها وإما مخالفة فهي باطل نرفضه. هذا فهم نقـلي في التعامـل مع الوافد من الماضي.

آخرون قبلوا هذا الفهم للوافد من الماضي ورأوا أن الوافد من العصر الحديث كون الحضارة الحديثة الرائعة وما دام الوافد من ماضـينا لا يقبلهـا فـنحن نـرفض ذلك الوافد من الماضي ونقبل على الوافد من العصر.

الفهم الأول معناه وفاء بلا مستقبل والفهم الثاني معناه مستقبل بلا وفاء.

في قصص التراث قصة عن مسيح دجال ينظر بعين واحدة إن صـورة الاعتمـاد على الوافد من الماضي وإلغاء الوافد من العصر نظر للواجـب بعـين واحـدة مثـل الاعتماد على الوافد من العصر وإلغاء الوافد من الماضي. الواجـب الصـحيح ألا ننظر بالعين الواحدة بل بالعينين. الواجب أن نحيط بالوافد من الماضـي اجتهـاداً وأن ندرك الوافد من العصر وأن نزاوج بينهما.

القراءة الصحيحة للوافد من الماضي:

قبل أن يتلقى الدين كان الإنسان.

إذن ينبغي أن نحدد صورة هذا الإنسان قبل أن تنزل عليه هداية الـدين. مـا هـو معنى الإنسانية؟

الإنسان كائن يشترك مع الكائنات الجمادية في قوانين الفيزياء، والكيمياء.

وهو كائن يشترك مع الكائنات الحيـة النباتيـة في أمـور كمـا في علـم النباتـات. ويشترك مع الكائنات الحية في قوانين كما في علم الحيوان «الزوولجي».

ولكن الإنسان مفارق لكل الكائنات الجمادية، والنباتية، والحيوانيـة بـل كافـة

(١) سورة الأنعام الآية (٣٨).

الكائنات في خمسة أشياء هي المبينة لمعنى الإنسانية وهي:

- أنه خص بأربعة مصادر معرفة هي: تأمل الغيب، العقل، الإلهام، والتجربة. تأمل الغيب يعني الوحي وهو البث الخفي وقد يكون لأنبياء عددهم لا يحصى وقد يكون لمرسلين وهم كثيرون. وقد يكون الوحي لغير هؤلاء من البشر على نحو ما جاء في القرآن: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾[1]. وقوله: ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾[2].
- الإلهام وهو استشعار فوق الحواس يفيد معارفاً.
- العقل وهو مستودع المعارف وميزانها.
- والتجربة وهي التي بمفرداتها تفيد معارف.

إن أية نظرية للمعرفة الإنسانية تنكر إحدى هذه الوسائل إنما تغمط وسائل المعرفة الإنسانية وتتحدث عن كائن دون قامة الإنسان.

ثانياً: القانون الأخلاقي مما يميز الإنسان. إنه بفطرته يلتزم بقانون أخلاق أعلى مقاييسه الإيثار، وأوسطها المعروف والمنكر، وأدناها المعاملة بالمثل.

ثالثاً: والإنسان وحده بين الكائنات يميز بين الخير والشر.

رابعاً: في التعامل بين الخير والشر نمى للإنسان ضمير.

خامساً: تفرد الإنسان بصفات محددة معناه أن تكون له حقوق.

هذه المعاني هي ما تعرف الإنسان. وأية نظرة تنكرها إنما تحط من قدر الإنسان وتتحدث عن كائن آخر ليس هو الإنسان.

إن ركود الفكر في ثقافتنا أدى لنشأة فكرويات تعطل دور الوحي والإلهام في

(١) سور القصص الآية (٧).

(٢) سورة المائدة الآية (١١١).

التكوين الإنساني معتمدة على العقل وحده. هذه فكرويات ناسوتية.

قال أبو العلاء:

لا إمـــام ســـوى العقـــل قـــائماً في صـــــــبحه والمســـــــاء

وأسس لنهج علماني قائلاً:

إن الشـــرائع ألقـــت بعيننـــا إحنـــاً وعلمتنـــا أفـــانين العـــداوات

فكرويات أخرى تعتمد على النقل وحده هذه فكرويات لاهوتية. وقيل:

العلـم مـا كـان فيـه قـال حـدثنا وما سوى ذاك وسواس الشياطين

اليقظة الفكرية الضرورية لنا هي أن ندرك معنى الإنسانية كـاملاً وأن نـدرك أن أي تعطيل لدور الوحي والإلهام يحط من قدر الإنسانية.

إن للفكر المادي والعلماني دورهما في حياة الإنسان، ولكـن إنكارهمـا للأبعـاد الروحية باطل.

أسوأ ما في الحياة ليس ما فيها من شقاء ولكن إذا صارت بلا معنى. ومعلوم أن الإنسان يجد إمكاناته مضاعفة إذا كان له إيمان.

كما أن لمعطيات الوحي والإلهـام دورهمـا في حيـاة الإنسـان ولكـن إنكارهمـا للأبعاد العقلية باطل.

إن فلاسفة المسلمين وفي القمة منهم ابن رشد. قالوا بالتوفيق بين هذه الـرؤى، مثلاً، كتابه: «فصل المقال فيما بين الشريعة والحكمة من الاتصال».

وفي القمة من فلاسفة العصر الحديث عمانويل كـانط[1] الـذي احـتج لصـحة الحقائق العقلية بكتابه «الحتميات الفاصلة». واحتج لحقيقة القيم التي لا تـدركها العقول بكتابه «الحتميات الواقعية». هذه هي اليقظـة الفكريـة التـي بـدونها يظـل

(١) عمانويل كانط: (٢٢ أبريل ١٧٢٤ - ١٢ فبراير ١٨٠٤م) آخر فلاسفة عهد التنوير العظام، يعتبر من أهم الفلاسفة الأوربيين. ألماني.

فكرنا يتخبط في الباطل وفي النظر بعين واحدة.

ولا يجدي الحديث عن تجديد الاجتهاد الديني ما لم يسبق ذلك يقظة فكرية تحدد معنى الإنسانية. فالدين للإنسان وليس الإنسان للدين فما لم نعرف ماهية الإنسان لا نستطيع أن نفهم ماهية الدين.

الصحوة الدينية:

تراثنا الديني نحن المسلمين يرتكز على: القرآن، السنة، السيرة، الفقه، والتاريخ.

القرآن: نص قطعي الورود ولكنه ليس كله قطعي الدلالة ففيه المحكم والمتشابه، وفيه الناسخ والمنسوخ، وفيه العام والخاص بظروفه. لذلك أوجب الله سبحانه وتعالى علينا التدبر في آياته بقوله: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [1]. وأشاد بـ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ [2].

إن للقرآن مئات التفاسير، ولكنها مع كثرتها وإخلاص أصحابها لا تلزمنا. فقد هيأت لنا التكنولوجيا الحديثة أن نحصل على نصوص كل التفاسير بصورة لم تتوافر لأجيال سابقة، ما يعني إمكانية أكبر للمقارنة والمقاربة. واستجدت معارف لم تكن متاحة لهم. لذلك علينا أن نحدد ماهية المقاصد الكلية وأن نفسر القرآن على ضوء تلك المقاصد.

مثلاً كانوا يعتقدون أن الذكورة والأنوثة متعلقة بغلبة ماء الرجل على المرأة أو المرأة على الرجل. وبذلك يفسرون الآية: ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ۝٤٥ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ﴾ [3]. المعرفة الحديثة تفسر هذه الآية تفسيراً صحيحاً وهو أن الذكورة

(١) سورة محمد (٢٤).

(٢) سورة الفرقان (٧٣).

(٣) سورة النجم الآيتان (٤٥، ٤٦).

والأنوثة من ماء الرجل. كذلك كان فهمهم الأرض مسطحة وأن الشمس تدور حولها وهي مفاهيم صححها العلم.

ومثلاً: من مقاصد الشريعة المساواة بين البشر كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ [1]. ولكن في القرآن ما يبيح العبودية. نبطل العبودية لأنها تتعارض مع مقاصد الشريعة في المساواة الإنسانية كما جاء في حديث النبي ﷺ: «لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ، وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ، وَلَا لِأَبْيَضَ عَلَى أَسْوَدَ، وَلَا لِأَسْوَدَ عَلَى أَبْيَضَ إِلَّا بِالتَّقْوَى، النَّاسُ مِنْ آدَمَ، وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ»[2].

السنة: سجلت السنة في كتب الحديث بعد أكثر من قرن من وفاة النبي ﷺ، ودخلت في الأحاديث أحاديث كثيرة موضوعة ومتناقضة حتى في الكتب المعتمدة صحتها. مهما كانت صحة الأسانيد التي اجتهد في غربلتها علماء الحديث فثمة خمسة مقاييس تلزمنا لاعتماد صحة الحديث هي:

- ألا يتعارض مع نص القرآن.
- ألا يتعارض مع الواقع، مثلاً، حديث رواه البخاري[3] يقول بقيام القيامة قياساً بعمر صبي كان مع جماعة سألوا النبي ﷺ عن الساعة: «عَنْ أَنَس أَنَّ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله، مَتَى السَّاعَةُ قَائِمَةٌ؟ قَالَ: وَيْلَكَ! وَمَا أَعْدَدْتَ لَهَا؟ قَالَ: مَا أَعْدَدْتُ لَهَا إِلَّا أَنِّي أُحِبُّ الله وَرَسُولَهُ، قَالَ: إِنَّكَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ. فَقُلْنَا: وَنَحْنُ كَذَلِكَ، قَالَ: نَعَمْ. فَفَرِحْنَا يَوْمَئِذٍ فَرَحًا شَدِيدًا. فَمَرَّ غُلَامٌ لِلْمُغِيرَةِ، وَكَانَ مِنْ أَقْرَانِي، فَقَالَ: إِنْ أُخِّرَ هَذَا فَلَنْ يُدْرِكَهُ الْهَرَمُ حَتَّى

(١) سورة الحجرات الآية (١٣).

(٢) سنن الترمذي.

(٣) البخاري (الإمام) (١٩٤- ٢٥٦هـ/ ٨٠٩- ٨٦٩م): محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بزدويه البخاري الجعفي، إمام أهل الحديث وصاحب "الجامع الصحيح" المعروف بصحيح البخاري.

تَقُومَ السَّاعَةُ[1]».

• ألا يتعارض مع حديث لاحق في الزمن. ما يوجب ترتيب الأحاديث حسب أزمانها لا حسب موضوعاتها.

• ألا يتعارض مع مقاصد الشريعة، مثلاً «بُعِثْتُ بَيْنَ يَدَيْ السَّاعَةِ بِالسَّيْفِ حَتَّى يُعْبَدَ اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ»[2] ولكن الدعوة للإسلام بالتي هي أحسن لا بالسيف.

• وأحاديث قد ينفر من معناه المسلمون لشذوذها. جاء في مسند أحمد، المجلد الثالث: قال النبي ﷺ: «إِذَا سَمِعْتُمُ الْحَدِيثَ عَنِّي تَعْرِفُهُ قُلُوبُكُمْ وَتَلِينُ لَهُ أَشْعَارُكُمْ وَأَبْشَارُكُمْ وَتَرَوْنَ أَنَّهُ مِنْكُمْ قَرِيبٌ فَأَنَا أَوْلاكُمْ بِهِ، وَإِذَا سَمِعْتُمُ الْحَدِيثَ عَنِّي تُنْكِرُهُ قُلُوبُكُمْ وَتَنْفِرُ مِنْهُ أَشْعَارُكُمْ وَأَبْشَارُكُمْ وَتَرَوْنَ أَنَّهُ مِنْكُمْ بَعِيدٌ فَأَنَا أَبْعَدُكُمْ مِنْهُ».

مثلاً: حديث تلين له قلوبنا قوله: «بَشِّرُوا وَلَا تُنَفِّرُوا، وَيَسِّرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا»[3]. وحديث تنفر منه قلوبنا: «لَوْ كُنْت آمِرًا لِأَحَدٍ أَنْ يَسْجُدَ لِأَحَدٍ لَأَمَرْت الْمَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا»[4]. بل ما تلين له قلوبنا قوله: «إِنَّمَا النِّسَاءُ شَقَائِقُ الرِّجَالِ»[5].

السيرة المحمدية: كتبت في سيرة النبي محمد ﷺ مئات الكتب وأكثرها يجاري سيرة أنبياء بني إسرائيل الدموية كما في التوراة ما يصور سيرة النبي محمد ﷺ بصورة مماثلة ويبرزها على أنها «مغازي» بينما المقياس الحقيقي للقتال في الإسلام هو ما ورد في الآية ١٣ من سورة التوبة. ﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّوا۟ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَٱللَّهُ

(١) رواه البخاري.
(٢) مسند بن حنبل .
(٣) صحيح البخاري.
(٤) سن الترمذي.
(٥) سنن أبو داود.

أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[1].

وأكثر كتب السيرة تجاري بالسيرة المحمدية سيرة عيسى عليه السلام مع اختلاف جوهري في السيرتين: سيرة عيسى عليه السلام تقوم على المعجزة. بينما سيرة النبي ﷺ تقوم على البشرية ما يتطلب مراجعة السيرة لأنسنتها ما يؤكد عبقريتها في حيثياتها الإنسانية.

الفقه: الفقه الذي بين أيدينا اجتهاد عظيم وهو فيما يتعلق بالثوابت والشعائر يحافظ على قيمته لأنها ثوابت وهو التزم بمنطق صوري من قياس وإجماع حافظ على المقاصد.

ولكن كما قال ابن القيم[2] في «إعلام الموقعين»: تتغير الفتوى بتغير الزمان. والمكان، والحال. فيما يتعلق بالمعاملات والعادات الفقه الموروث لا يصلح والمطلوب فقه متجدد يراعي المستجدات وإلا كانت أحكامه مناقضة لمقاصد الشريعة.

فيما يتعلق بتطبيق الشريعة ينبغي إدراك أنه بالنسبة للمعاملات والعادات فالعقلانية، والنفعية، والضرورات الإنسانية والعدالة مرجعية. كذلك قواعد العلوم الإنسانية وعلم النفس، وعلم الاجتماع، وعلم الآثار وكافة هذه العلوم التي يدركها العقل وتكشفها التجربة كالعلوم السياسية والاقتصادية.

وفيما يتعلق بالحدود فإنها تدرأ بالشبهات. إنها عقوبات تتطلب ظروفاً وقائية ما لم تتوافر كما يجب شبهة تتطلب العدول عنها وتطبيق العقوبات التعزيرية.

مفاهيم خاطئة للواجب الإسلامي:

(أ) **تطبيق الشريعة**: الشريعة في كل ما يتعلق بالثوابت أي التوحيد، والنبوة،

(١) سورة التوبة الآية (١٣).

(٢) ابن القيم الجوزية، الطرق الحكمية في السياسة الشرعية، حيث يورد كلام ابن عقيل، ومناقشته لفقيه شافعي يقول "لا سياسة إلا ما وافق الشرع".

والمعاد، والأركان الخمسة مطبقة، فأهل القبلة جميعاً مسلمون وينبغي العدول عن فكرة أنهم في جاهلية.

﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾[1] نص متعلق بالتشريع وعبارة حكم في القرآن دائماً متعلقة بالتشريع والقضاء لا بولاية الأمر. هذا خطأ الخوارج كما قال الإمام علي: نعم ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾[2] ولكنهم يقولون الإمرة لله! وهذا خطأ. وينطبق هذا على مقولة الحاكمية التي يتخذها سياسيون سلماً للسلطة باسم الله. أما مطلب تطبيق أحكام الشريعة فإنه يستوجب مر عاة عوامل كثيرة أهمها: مراعاة الواقع الحديث، ومراعاة الأولويات، ومراعاة حقوق غير المسلمين، فالأمر يتطلب اجتهاداً يراعي هذه الظروف ويلم بالواقع ويزاوج بينهما كما قال ابن القيم. أما القول بتطبيق الشريعة كأن المطلوب هو فتح كتب مرجعية وتطبيق ما جاء فيها فإنه يأتي بنتائج عكسية تتعارض مع مقاصد الشريعة.

وفي السودان رفع تطبيق الشريعة شعاراً في عهد النظام المايوي الانقلابي الاقصائي فوظفت أحكام جنائية لحماية نظام مخالف تماماً لمطالب الشريعة في الكرامة، والحرية، والعدالة. وعلى نفس المنوال كان شعار تطبيق الشريعة في عهد النظام الانقلابي الاقصائي الدموي الظالم الفاسد.

هاتان التجربتان رفعتا شعار تطبيق الشريعة لاكتساب شرعية لنظامين انقلابيين قاما على حنث اليمين، وطبقا أحكاماً شرعية لحماية نظامين يناقضان مقاصد الشريعة. والانقلاب العسكري نفسه خروج عن النهج الإسلامي كما قال الشيخ الألباني.

وكذلك فعل آخرون فجروا على شعار تطبيق الشريعة سمعة سيئة. ونفس هذا الحكم ينطبق على تطبيق الشريعة كما تمارسه طالبان. وعلى سنة هذا التطبيق تسير

(١) سور الأنعام الآية (٥٧).

(٢) سور الأنعام الآية (٥٧).

القاعدة، والدولة الإسلامية وكافة فروعها.

إن تطبيق الشريعة كما مارسه هؤلاء جميعاً مجرد من مراعاة الاجتهـاد الجديـد الـذي يتطلبه تغير الزمان والمكان والحال. وأسوأ من ذلك فإنه تطبيق يقوم على التغلب لا عـلى الشورى، ويغيب مقاصد الشريعة في كرامة الإنسان، والعدالة، والحرية.

لو فكر أعداء الإسلام في أمر يسيء للإسلام لما وجدوا خطة أفضل ممـا فعـل هؤلاء بالشعار الإسلامي.

(ب)**الجهاد**: ادعاء الجهاد أكبر مدخل للإساءة للإسلام ويتطلب فقـه الجهـاد بياناً واضحاً لمعناه لحمايته من المتطفلين عليه:

- الجهاد أوسع من القتال ويبدأ بالنفس لتزكيتها وثم بالعمل بكل الوسـائل لإعلاء كلمة الله. ولا يوجب القتال إلا دفاعاً عن النفس وعن حرية العقيدة.

- والقتال في الإسلام لا يجوز إلا تلبية لنداء قيادة شرعية. وهو حينئذ يلتـزم بضوابط أخلاقية صارمة فلا يستهدف غير المقاتلين في صفوف العدو.

- مقولة إن آية السيف قد نسخت كل آيات التسامح في القرآن مقولة باطلـة. آية السيف هي الآية الخامسة من التوبة. جاء فيها: ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[1].

هذه الآية سبقتها آية هي الرابعة تستثنى المعاهدين. وأعقبتها آية السادسة تأذن باستجارة المشركين. الحقيقة أن القتال المأذون به في الإسلام هو قوله تعالى: ﴿ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّوا۟ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[2].

(١) سورة التوبة الآية (٥).

(٢) سورة التوبة الآية (١٣).

علينا أن نراجع فقه الجهاد ونقفل الباب أمام أصحاب الهوى السياسي الذين يعلنون الجهاد بلا قواعده.

أعلن حزب في السودان أثناء الحكم الديمقراطي تطبيق الشريعة في ظرف كذا يوم من الأيام وإلا إعلان الجهاد! وأعلن آخرون جهاداً عالمياً على كل الأمريكان قتالاً فرض عين على كل مسلم.

جهاد من أكثر العبارات التي يستخدمها أصحاب الهوى السياسي والحقيقة: الجهاد يتعلق بجهاد النفس، وببذل الجهد لدعوة الحق بالتي هي أحسن، ولا يصير قتالاً إلا دفاعاً عن النفس أو عن حرية العقيدة، وعندئذٍ يلتزم الجهاد بضوابط أخلاقية لا تستهدف غير المقاتلين. ولا يصير مشروعاً إلا إذا أعلنته ولاية ذات شرعية مستمدة من الشورى في مناخ يكفل الحرية والعدالة لأن الشورى وآليتها الديمقراطية لا تصح إلا إذا توافرت الحرية والعدالة.

قراءة تصحيحية للفرق الإسلامية:

أهم الفرق الإسلامية اليوم هم: السنة، الشيعة، الصوفية.

إن لهذه الفرق جميعاً منطلقات إسلامية صائبة، ولكن زادت عليها عقائد مذهبية جعلتها في حالة احتراب لفظي دائم يتطرف ويتسلح بالعنف.

الاختلاف بين فرق المسلمين نما وتفرع لمدة أكثر من ألف عام وقد تجدد في أيامنا هذه. إنه اختلاف لا يمكن أن يحسم بالقوة. ولا يمكن أن يحسم بالحوار. ونحن أمام أن نتركه يزداد ويصير وقوداً لحروب أهلية مستمرة داخل أقطارنا وفيما بينهما وبالتالي يمزقها ويفتح مجالات واسعة للأعداء لاستغلالها. أو أن نلحق أنفسنا ونقيم علاقات توفيقية بيننا.

إن المشاركة في اليقظة الفكرية مهمة ينبغي أن تقوم بها كل الفرق الإسلامية لأنها جميعاً تعاني من عيوب الانكفاء الفكري والديني الذي يتطلب اليقظة على الأسس المبينة ههنا.

ولكن هنالك مراجعات أساسية ينبغي أن تجريها الفرق لإزالة الفرقة المدمرة التي تعيشها الفرق الإسلامية اليوم:

(أ) **أهل السنة**: مفهوم أن السنة هي الالتزام بسنة النبي محمد ﷺ ينطبق على كل أهل القبلة ولكن العبارة الآن تطورت في اتجاه مذهبي يتحزب لصحابة النبي محمد ﷺ ويواجه مآخذ الشيعة عليهم. نعم للصحابة مكانة مميزة في الدعوة الإسلامية وقد امتدحهم القرآن: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ (١)

ولكنهم بشر وتقليدهم ليس واجباً دينياً، ونقد تصرفات من أخطأ منهم ليس حراماً. والتسنن اتخذ شكلاً إقصائياً يكفر الشيعة باعتبارهم روافض. هذا غلو فمن يؤمن بالتوحيد، وبالنبوة، والمعاد، والأركان الخمسة مسلم يحرم تكفيره وما بين المسلمين من خلافات حول تفاصيل أخرى وارد، وأمره لله. هذا ما يقول به عقلاء أهل السنة. قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ (٢) وهذا المعنى وارد في أكثر من آية.

(ب)**الشيعة**: مفهوم أن الشيعة هم أشياع آل بيت النبي محمد ﷺ، وحبهم ينطبق كل المسلمين فلا أحد ينكر كذلك مكانة الإمام علي الخاصة على نحو ما قال النبي محمد عنه في غدير خم: «مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيٌّ مَوْلَاهُ اللَّهُمَّ وَالِ مَنْ وَالَاهُ وَعَادِ مَنْ عَادَاهُ»(٣). ونحن جميعاً نصلي على النبي محمد وآله في تحيات الصلاة. ولكن الشيعة جعلوا الإمامة وعصمة الأئمة من أركان الدين، واعتقدوا في تسلسل الإمامة بعد الإمام الحسين في ذريته إلى الإمام الثاني عشر. واعتبروا من لا يؤمن بالإمامة بهذا الفهم من النواصب وكفروهم. أئمة الشيعة بشر والاعتراف بهم

(١) سورة التوبة الآية (١٠٠).

(٢) سورة آل عمران الآية (٥٥).

(٣) مسند بن حنبل.

وطاعتهم ليست واجباً دينياً. الواجب أن نقف عند ما يجمع بين أهل القبلة من عقائد وأن نعتبر الزيادات مذهبية تلزم أصحابها لا غيرهم على أن نمسك عن تكفير من لا يؤمن بتلك الزيادات وأن نفوض أمرها لله.

علينا في الحالين السنة والشيعة أن نتحد فيما يجمع بيننا وأن نمسك عن تكفير بعضنا بل نعترف ببعضنا الآخر، وأن نحاور بعضنا الآخر فيما نختلف فيه بالتي هي أحسن. وأن نلتزم باحترام الصحابة وآل بيت النبي ﷺ دون أن يعني هذا ألا نمارس نقداً موضوعياً لهم فهم بشر وابن آدم خطأؤون، فإن كان القرآن يعتب على النبي محمد ﷺ نفسه مآخذ، فلا غرو أن نأخذ على معاوية أخذ البيعة قسراً لابنه يزيد أو أن نأخذ على الحسن بيعته لمعاوية.

هذا التعايش بيننا حول العقائد لا يمنع استمرار الاختلاف حول أحداث التاريخ على ألا نجعلها مقدسات بل أحداث تاريخية وارد فيها اختلاف الروايات فهي خلافات بين بشر وارد في حقهم الخطأ والصواب، المهم أن تلك الأحداث لا يترتب عليها عقائد والله يفصل بيننا فيما اختلفنا فيه، ولكننا في هذه الحياة لا نجعلها سبباً في الإدانة والإقصاء. أي لا نجعل الاختلاف حول أحداث التاريخ أساساً للإدانات المتبادلة والإقصاء بيننا الآن.

كذلك ينبغي ألا نتخذ الخلافات في المذاهب الفقهية سبباً للتنافر بل نعترف بمذهبهم الفقهي الجعفري ويعترفون بمذاهب أهل السنة فهي اختلافات في تفاصيل لا تلزم إلا أصحابها.

(ج) **التصوف**: التصوف يعني بالجذور الروحية لمبادئ الإسلام وتعاليمه وله أصل في الإسلام قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ ﴾[1]. هذا المعنى الذي يجعل لهؤلاء كسباً روحياً عبر عنه الصوفي:

(١) سورة الحديد الآية (٢٨).

قلوبُ العاشقينَ لها عيونٌ تَرى ما لا يَراهُ الناظرونا
وأجنحةٌ تطيرُ بغيرِ خفقٍ إلى ملكوتِ ربِّ العالمينا

هذا التمكين الروحي جعل قلوبهم مطمئنة بذكر الله وحيثما واجه المسلمون محنة على أيدي حكام طغاة فإنهم وجدوا موئلاً في زوايا الصوفية كما حدث في أثناء السيطرة السوفيتية على آسيا الوسطى المسلمة، وكما حدث أثناء حكم مصطفى كمال في تركيا، كذلك استطاعت طرق صوفية أن تقوم بالدعوة الناجحة السلمية للإسلام وبذلك نشروا الإسلام في أفريقيا جنوب الصحراء، وفي جنوب شرقي آسيا.

ولكن لأن التصوف فيه درجة من الحرية الذاتية استصحب بعض أعلام التصوف:

- فلسفات استشراقية مثل وحدة الوجود كما قيل:

وفي كلِّ شيءٍ لَهُ آيةٌ تَدُلّ على أنّهُ عينه

بعض المتصوفة أولوا قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [1] أنه لا موجود في الحقيقة إلا لله وهو التأويل الذي بموجبه قال الحلاج ما في الجبة إلا الله ففهم منه من لا يقبلون هذا التأويل أنه أدعى الألوهية. فكانت مأساة الحلاج.

كما سمحت تلك الحرية الذاتية لبعض المعتقدات الشعبية أن تتسرب إلى ممارسات بعض الصوفيين. ما جلب لهم شجباً على أيدي بعض الفقهاء كما روت «طبقات ود ضيف الله» السوداني والخلاف الذي دب بين القاضي دشين[2] والشيخ الهميم[3].

(١) سورة الحديد الآية (٣).

(٢) محمد بن مدني بن دشين، قاضي العدالة العالم الشافعي في عهد مملكة الفونج في مدينة أربجي، عالم أربجي وخطيبها وقاضيها.

(٣) محمد الهميم، الشيخ، جاء في كتاب الطبقات لمحمد بن ضيف الله أنه لم يكن يلتزم بالأربعة في الزواج فزادهن، وجمع بين الاختين إذ تزوج بنتي أبو ندودة الاثنتين في رفاعة، وجمع بين بنتي الشيخ بان النقا الضرير كلثوم وخادم الله. وحينما حضر لصلاة الجمعة بأربجي حدثت مشادة بينه وبين القاضي دشين.

ولكن هذه المآخذ لا تسلب التصوف من حصيلة بعض العارفين على نحو ما حكى ابن سينا[1] لدى لقائه مع أبي سعيد بن أبي الخير الصوفي[2] وبعد ثلاثة أيام من المحاورة سئل ابن سينا عما كان بينهما فقال: «تذاكرنا بثلاثة أيام واتضح لي أن ما أعرفه يراه وما يراه أعرفه». إشارة للدربي الحقيقة: الدرب العقلاني والدرب الإلهامي.

وإذا استبعدنا مقولات بعض السطحيين نجد عند أئمة الاجتهاد تقديراً للأبعاد الصوفية على نحو مقولة الإمام مالك[3]: «من تفقه ولم يتصوف فقد تفسق. ومن تصوف ولم يتفقه فقد تزندق. ومن جمع بينهما لقد تحقق».

وقال الإمام الشافعي[4]:

فقيهاً وصوفياً فكن ليس واحداً ... فإني وحق الله إياك أنصح

فذلك قاس لم يذق قلبه تقى ... وهذا جهول كيف ذو والجهل

والمعنى في مقولة الإمامين أن التفقه والتصوف يتكاملان ولا يتعارضان.

بين هذه الفرق الإسلامية ذات التأييد الواسع في جسم الأمة الإسلامية حرب

(١)ابن سينا (٣٧٠هـ/ ٩٨٠م- ٤٢٧هـ/ ١٠٣٧م) أبو علي الحسين بن عبد الله بن الحسن بن علي بن سينا، عالم وطبيب مسلم من بخارى اشتهر بالطب والفلسفة. لقب بـ«الشيخ الرئيس»، وسماه الغربيون أمير الأطباء وأبو الطب الحديث. وأشهر أعماله «كتاب الشفاء» وكتاب «القانون في الطب».

(٢) أبي سعيد بن أبي الخير الصوفي (٩٦٧- ١٠٤٩م): شاعر وصوفي فارسي، أول من وضع أسس التصوف وأنشأ فكرة المدارس والخانقاهات (مكان ينقطع فيه المتصوفة وأهل الخير إلى العبادة) والرتب الصوفية .

(٣)الإمام مالك (٩٣- ١٧٩هـ/ ٧١٢- ٧٩٥م): هو مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر. إمام المدينة. من أبرز أئمة الحديث، ألف أول كتاب في الفقه الإسلامي هو (الموطأ)، من الأئمة الأربعة.

(٤)الشافعي (١٥٠- ٢٠٤هـ/ ٧٦٧- ٨١٩م): هو محمد بن إدريس العباسي بن عثمان بن شافع بن السائب القرشي بن عبد المطلب بن مناف، ولد في غزة ونشأ في مكة، وانتقل إلى مصر، من الأئمة الأربعة.

كلامية مستمرة وأحياناً قتالية، وفي استمرارها شلل للأمة لا سيما ما يتخللها من تكفير متبادل.

الواجب أن ننبري لهذا التراث بالتنقية، والتنقيح،والغربلة.

قراءة في التاريخ: من أكبر العيوب أن يتعامل مع تاريخ الأمة وهو تاريخ بشري باعتباره مقدساً.

اليقظة الفكرية توجب نزع التقديس عن كل تاريخنا بدءاً من عهد الخلفاء الراشدين وما بعدهم. الخلفاء والصحابة وكافة صناع تاريخ أمتنا بشر وارد في أدائهم الصواب والخطأ وقد وقع منهم صواب وخطأ.

علينا أن نعيد قراءة التاريخ مزودين بكل المعارف العلمية التي اكتسبناها لكي نكتب تاريخاً بشرياً على أسس موضوعية ميزته في بشريته لأنه حينئذ يصلح للقدوة والاعتبار، لأن تقديسه يخفي حقائقه وبالتالي يمنعه أن يكون قدوة لنا وللأجيال اللاحقة.

الكتابة الموضوعية لتاريخ الأمة تجعله أهلاً للقدوة والاعتبار: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[1].

استحدثت الإنسانية وسائل دارسة، وإعلام لم يعهدها الماضي. هذه كلها ينبغي استخدامها في الدراسة والإعلام.

لقد تحرج بعضنا في استخدام السينما وهي من أقوى وسائل الإعلام لتصوير الأنبياء والصحابة. الأنبياء والصحابة بشر ينطبق عليهم ما ينطبق على البشر. التمنع في هذا المجال تورع في غير محله فنحن في الكتب نسهب في أوصاف الأنبياء والصحابة بلا حرج نصف وجوههم، وألوانهم، وأبدانهم فلا حرج في التمثيل

(١) سورة يوسف الآية (١١١).

والحرج الوحيد هو ألا يساء إليهم.

الحركية الإسلامية:

الحركية الإسلامية تفترض أن المجتمعات الإسلامية الحالية فاسقة أو كافرة، أو معطلة للشريعة، وهي في كل هذه الحالات تتطلب تحركاً إسلامياً لأسلمتها. أهم وجوه الحركية الإسلامية: الحركة السلفية، والحركة الأخوانية، ولاية الفقيه في المجال الشيعي.

السلفية:

أول مقولة لتأسيس فكرة السلفية هي مقولة: « مَا لَمْ يَعْرِفْهُ الْبَدْرِيُّونَ فَلَيْسَ مِنَ الدِّينِ»[1].

- الله هو المعبود وأي نوع من إسناد الإرادة لغيره شرك لذلك الاعتقاد في الصالحين من نفع وضر فهو شرك.

- كل طائفة ممتنعة عن التزام شريعة من شرائع الإسلام الظاهرة المتواترة تقاتل حتى يلتزموا شرائعه وإن كانوا ناطقين بالشهادتين وملتزمين بعض شرائعه كما قال ابن تيمية.

- الولاء والبراء يوجب الولاء لمن يؤمن بعقيدة السلف والبراء من غيرهم ما يعني البراء من كل أصحاب الملل الأخرى على أساس قوله تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾[2].

- أما الإمامة أي الحكم فقد قال عنه الإمام أحمد بن حنبل: «ومن غلبهم بالسيف حتى صار خليفة وسمي أمير المؤمنين لا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يبيت ولا يراه إماماً عليه براً كان أو فاجراً».

(١) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر.
(٢) سورة البقرة الآية (١٢٠).

• النظم السياسية الحديثة من أحـزاب سياسـية ومفـاهيم ديمقراطيـة نظـم كافرة.

السلفية بهذا الفهم تعني:

أولا: المساواة بين الثابت والمتحرك في تعاليم وأحكام الإسلام، وهـذا معنـاه منع حركة المجتمع وتقييده على ما كان عليه الصحابة لأن ما عداه بدع.

ثانياً: اعتبار دعاة السلفية أنفسهم الفرقة الناجية وتكفير ما عداهم.

ثالثاً: تحريم أية اتجاهات لاستصحاب النظم الاجتماعيـة الحديثـة باعتبارهـا بدع كافرة.

رابعاً: قفل باب أية علاقة غير صدامية مع غير المسلمين.

خامسـاً: تكفيـر فـرق المسـلمين الأخـرى مـن شـيعة وصـوفية وأهـل سـنة كالأشاعرة[1] - مثلاً- لا يؤمنون بما يقول به السلفيون.

سادساً: اعتبار المجتمع الآخر كافراً واستباحة قتالـه بمـا يفـتح البـاب واسـعاً للإرعاب «الإرهاب».

لا يمكن أن نحقق سلاماً اجتماعياً واستقراراً في المجتمعات المسلمة ما لم يجر السلفيون بكل مدارسهم مراجعات أساسية فيهـا حصـر السـلفية في الثوابـت مـن الشعائر أما في العادات والمعاملات فالمقولة الصحيحة هي مقولة الفقيه الزيلعـي الحنفي[2]: إن الأحكام تختلف باختلاف الأزمان.

المطلوب بسرعة أن يجري الفكر السلفي مراجعات أساسية تحصر السلفية في

(١) **الأشاعرة:** فرقة كلامية إسلامية، تنسب لأبي الحسن الأشعري الذي خرج على المعتزلة. من كبـار أئمتها: البيهقي والنووي والغزالي والعز بن عبـد السـلام والسـيوطي وابـن عسـاكر وابـن حجـر العسقلاني والقرطبي والسبكي.

(٢) يوسف الزيلعي (٧٦٢هـ - ١٣٦٠م) الحافظ، الإمام، جمال الدين أبو محمد عبد الله بن يوسف.

الثوابت وتفتح الطريق أمام اليقظة الفكرية المشار إليها ليساهم السلفيون في بناء الأمة.

ولكن استمرارهم على العقائد الراهنة يعني الاقتتال الطائفي المستمر. كما يعني الحرب المستمرة مع غير أهل الولاء لاعتقادهم.

انطلاقاً من الفهم السلفي تكونت حركات السلفية الجهادية. وانطلاقاً منها تكونت القاعدة ولا يمكن التصدي لهذه الفروع ما لم تخاطب الأفكار الأصلية.

هذه التحديات تتطلب عقد مؤتمر جامع للسلفية لمراجعة معطياتها وإلا بقيت زاداً للتطرف والعنف المصاحب له.

الحركية الأخوانية:

لقد ذكرنا كيف تسلسل الفكر السلفي، كما ذكرنا كيف تناسل الفكر الأخواني.

كلاهما أي الحركة السلفية، والحركة الأخوانية، قاما بدور مهم في الحث على التزام شعائر الإسلام، كما حققا برامج دعوة لجادة الدين، ودوراً مهماً في التمدد في مجالات توفير الخدمات الاجتماعية خاصة في المجالات التي قصرت الحكومات عن القيام بها.

لقد صار للحركات ذات المرجعية الاخوانية تجارب في السلطة أوجبت أن تجرى مراجعات أساسية على ضوئها.

أقول لا ينكر للحركة الأخوانية أنها قامت بدور مهم خلاصته:

أولاً: الرد على من أنكر أن يكون للدين دور في الحياة العامة.

ثانياً: دخول مجال العمل السياسي بشكل تنظيمي قاعدي لا يكتفي بالتنظيمات الفوقية.

ثالثاً: الاهتمام بالعلاقات فوق القطرية على نطاق الأمة.

رابعاً: الاهتمام بالدعوة في أوساط القوى الاجتماعية الحديثة.

خامساً: استصحاب الحداثة دون تبعية للآخر الدولي.

ولكن التجربة ذات المرجعية الأخوانية في السودان ومصر سقطت في العيوب الآتية:

أولاً: إعلاء شأن السيطرة السياسية على أساس نهج الحاكمية باعتباره الركن الأهم في التوجه الإسلامي.

ثانياً: الحرص على التمكين في ممارسة السلطة على حساب ما تتطلبه التعددية.

ثالثاً: إعلاء شأن التنظيم فوق التربية، وفي التجربة السودانية تجاوز التنظيم نفسه للإدارة الأمنجية.

رابعاً: عدم الاهتمام بمتطلبات الحلقة الوطنية والحلقة القومية.

خامساً: الإسراف في استخدام أساليب القهر والتعذيب في السلطة والإسراع باللجوء للعنف في المعارضة.

سادساً: الخلط بين الإستراتيجية والتكتيك وإعلاء شأن المناورة بصورة لا تليق بدعوة ذات التزام أخلاقي. مثلاً: الخدعة الكبيرة التي مارسها انقلاب الجبهة الإسلامية القومية في السودان في يونيو ١٩٨٩م ليذهب أمينها العام للسجن حبيساً، وقائد الانقلاب العسكري التابع للتنظيم للقصر رئيساً، لإخفاء هوية الانقلاب، بل وكانوا يقسمون على المصحف ألا علاقة بين التنظيم والانقلاب!

سابعاً: عدم المصداقية في قبول منظومة حقوق الإنسان والالتزام بالديمقراطية.

إن ما حدث في مصر منذ ٣ يوليو ٢٠١٤م يتطلب أن يراعي الطرفان في مصر مراجعات، فالسلطة ينبغي أن تعترف بالحاجة لتحقيق موضوعي عما اتخذت من إجراءات عنف لقمع الأخوان. فالسلطة التي اعتمدت على غضبة شعبية ضد الأخوان اعتبرت كل أخواني إرهابي وهذا غير صحيح ففي داخل الأخوان تيارات

أهمها تيار هضيبي وآخر قطبي. وهما على اختلاف مهم بينهما لا يتطابقان مع القاعدة، وداعش، وأخواتهما. والحوادث التي ألصقت بالأخوان اعترف بها غيرهم دون إجراء تحقيقات لمعرفة الحقيقة.

في عهد الرئيس المصري السابق أنور السادات استعان بالأخوان وغيرهم للبطش بناصريين ويساريين. هؤلاء الآن يستقلون الحملة ضد الأخوان انتقاماً.

فكرة عودة الأخوان للسلطة على أنقاض النظام الحاكم حالياً باطلة. وفكرة اجتثاث الأخوان كذلك مستحيلة. ترك الشأن المصري للمساجلة بين العودة والاجتثاث تعمق الانقسام في مصر ويمكن أن تخطو نحو حرب أهلية يراهن عليها أعداء مصر.

الحركات ذات المرجعية الأخوانية في كثير من البلدان راجعت مواقفها وقبلت استحقاقات الانخراط في العمل السياسي. هذا ما فعله حزب النهضة في تونس فإنهم بعد أن حصلوا على شرعية انتخابية حرصوا على ممارسة شرعية توافقية. وكذلك كان موقف حزب العدالة والتنمية في المغرب فقد أدرك أن هناك واقع: دولة عميقة، ومجتمع عميق، ونظام دولي عميق فأخذ هذا الواقع في الحسبان. إنه توفيق بين الواجب والواقع يعتبره العقلاء من مقاصد الشريعة.

ولم يندفع هؤلاء في اتجاه أحادي لتطبيق الأحكام الشرعية بل أدركوا أن كل أحكام الشريعة مرتبطة في تطبيقها بالوسع الاجتماعي. بل هناك قاعدة من مقاصد الشريعة وهي: الطاعة قدر الوسع وهي مستمدة من الآية: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾[1].

وهنالك تجربة الحزب أخواني المرجعية في أندونيسيا. أندونيسيا حققت نجاحاً باهراً ومع شدة التنوع فيها إذ تتكون البلاد من ٦ ألف جزيرة مأهولة و ١٠ ألف جزيرة غير مأهولة فإنها حققت طفرة تنموية ووحدة وطنية على أساس مبادئ خمسة جمعت بين الإيمان بالله والوحدة الوطنية من خلال التنوع. الحزب أخواني

(١) سورة التغابن الآية (١٦).

المرجعية هناك ساهم في التجربة وعززها.

والتجربة التركية فيها تعرض الحزب أخواني المرجعية للحل أربع مـرات دون أن يلجأ للعنف.

إذن لا التمكـين، والـبطش بـالآخر، والانقـلاب العسـكري كمـا في التجربـة السودانية، ولا المغالبة، والتنصل من الاستحقاقات الدستورية، ثم اللجوء للعنف في المعارضـة كمـا في التجربـة المصـرية سـلوكيات حتميـة في تصـرفات أحـزب المرجعية الأخوانية.

لذا يرجى أن تتنادى الحركات ذات المرجعية الأخوانية لمؤتمر جـامع لتقيـيم تجاربهم ومراجعة الأخطاء والالتزام باتفاق يستنهض الشعوب ببناء إسلامي يقوم على اجتهاد جديد لبيان الواجب، وإحاطة واعية بالواقع، والتزاوج بينهمـا عـلى أن هذا نفسه اجتهاد بشري لا يمنح صاحبه ادعاء التحدث باسم الله إنمـا هـو اجتهـاد بشري ينسب لأصحابه.

نهى النبي محمد ﷺ أحد قادته إذا استسلم أهل حصن أن ينزلهم على حكم الله أو على حكم رسوله، بل على حكمه هو أي حكـم اجتهـادي، لا قـرار ثيـوقراطي. لذلك لا يحق لأحد أن يتحدث نيابة عن الله بل يجتهد وما يصدره بعـد الاجتهـاد ينسب لاجتهاده البشري.

التأصيل الوطني:

كل الكائنات تحرص على فضاء خاص بها. هذا الشعور فطري.

ومع أن الأمة الإسلامية كانت لا تعرف الانتماء الوطني فإنها مع الزمن تفرقت بداية لخلافة أموية تنافسها خلافة عباسية ثم نمت في الجسم الإسلامي سـلطنات متعايشة عثمانية، وصفوية، ومغولية، ثم تعرضت أقاليم الأمة للاحتلال الأجنبـي. وبعد الاحتلال الأجنبي ونتائج الحروب برزت كيانات وطنية صار لسـكانها ولاء وصارت هي وحدات العضوية في النظام الدولي.

الشعور الوطني ليس غريباً على المفاهيم الإسلامية: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾[1].

الإخراج من الديار يشير لهذا الشعور الوطني. والوحدات الوطنية أوسع من الانتماء القبلي ويمكن أن توفر إدارة أفضل للجماعة، وآلية أفضل لحفظ الأمن، ووحدة أفضل لتوفير المعيشة، وهي إن صارت ضرورية للقيام بهذه المهام فإنها ليست كافية لأن هنالك انتماءاً قومياً كما للعرب يتجاوز الحدود القطرية. وانتماء للأمة الإسلامية، وانتماء للنظام الدولي الجماعي.

في الظروف المعاصرة، الوطنية وحدة إنتماء مطلوب ويوجب ولاءاً وطنياً يجمع سكانه في كيان وطني واحد وينبغي ألا تحجبه العصبية من حلقة أوسع، هي حلقة القومية، ولا حلقة أوسع هي حلقة الأمة، ولا حلقة كونية جامعة كالأمم المتحدة.

إن للوطنية استحقاقات هي المساواة في المواطنة رغم تنوع هويات السكان. هذا الفهم للوطنية أي التي تكفل حقوق مواطنة متساوية لسكانها ولا تتناقض مع حلقات الانتماء الأوسع هو الفهم للتأصيل الوطني.

التأصيل القومي:

التنوع القومي من حقائق العالم فللعرب، وللأتراك، وللفرس، وغيرهم انتماءاتهم القومية.

العربية ثقافة ولسان، وعلى طول التاريخ تمددت من مركز محدود إلى عالم عريض كما قال النبي محمد ﷺ: «مَنْ تَكَلَّمَ بِالْعَرَبِيَّةِ فَهُوَ عَرَبِيٌّ»[2]. ولكن هنالك قوميات ذات ثقافات غير عربية كالأكراد، والامازيق، والنوبة، والزنوج، والبجا،

(١) سورة الممتحنة الآية (٨).

(٢) تاريخ دمشق لابن عساكر.

والنوباويين، وغيرهم يتعايشون مع العرب. وهنالك عرب يعيشون في بلدان أكثريتها غير عربية كالفرس والأتراك وغيرهم.

على قوميات الأكثرية الاعتراف بقوميات وثقافات المجموعات القومية الأخرى.

الوحدة الوطنية تستوجب المساواة في المواطنة، والوحدة القومية تستجوب الاعتراف بهويات الآخرين، ومهما كانت الأعداد العربية كبيرة فإن القوميات الأخرى تتطلع لاحترام هويتها القومية، احترام صار الآن جزءاً من حقوق الإنسان.

إن للقومية دوراً مهماً في بنائنا الحضاري. وفي ١٩٨٧م التقيت الأستاذ ميشيل عفلق[1] في بغداد . قلت له أنا أشيد بدورك في الاستنارة العربية ولكن لدي تحفظات:

أولاً: قلتم أمة عربية واحدة ذات رسالة خالدة. هل توجد رسالة غير الإسلام؟ قال: هي الإسلام. قلت: له أنتم اتخذتم نهجاً خلق تناقضاً بين القومية والإسلام ما يوجب مراجعة.

ثانياً: العروبة جامعة بن المسلم والمسيحي في المشرق. لدينا في السودان حيث تعدد الإثنيات هي عنصر مفرق ما يوجب مراعاة الخصوصية هنا.

ثالثاً: الشعار وحدة، حرية، اشتراكية. ولكن تجاوزتم الحرية بالانقلابية فضاعت بقية الأهداف ما يجعل الحرية ذات أولوية. قال: نعم ووعد أن يأخذ هذه الملاحظات في عمل ينشره. ولكنه توفى قبل ذلك وذكرت هذه المعاني في نعيه.

***

(١)ميشيل عفلق (١٩١٠ - ٢٣ يونيو ١٩٨٩)، سوري مسيحي، مؤسس حزب البعث الذي أصبح فيما بعد حزب البعث العربي الاشتراكي، نفي من بلاده سوريا البعثية ودفن بالعراق.

الدائرة القارية:

هنالك مصالح قارية مشتركة كما في آسيا، وأفريقيا، وأروبا.

يجمع بيننا في أفريقيا الاتحاد الافريقي وهي دائرة ذات حقوق وواجبات تلزمنا. ربط الأفريقية بالأفريقانية اللونية غير مشروع بل هو من رواسب الفكر الامبريالي ومن رواسب علاقات بائدة ربطت بين مكانة الإنسان ولونه. الانتماء القاري الأفريقي يرتب حقوقاً وواجبات لكل سكان القارة شمالها، وجنوبها، وشرقها، وغربها.

الدائرة الإسلامية:

إن إقامة إمامة جامعة أو خلافة جامعة انتهت بعد أول ١٥٠ عاماً من تاريخ المسلمين.

إقامة إمامة أو خلافة واحدة الآن بالقوة أو بالإقناع مهمة مستحيلة. ولكن إقامة رابطة بين الدول، والقوميات الكبيرة بصورة تكفل لها حقوقاً، وترتب عليهم واجبات ممكنة فالمسلمون يشعرون بإخاء نحو بعضهم الآخر، ويمكن أن يجسد هذا الإخاء تكوين باسم الجامع الإسلامي يضم الكيانات الوطنية والقومية دون أن ينكر حقوقها، ودون أن يمنع انتماء هذا الجامع لأمم متحدة تضم دول العالم كافة.

العلاقات الملية:

نحن المسلمين نمتاز على كثير من الملل الأخرى بثلاثة أمور هي:

- الاعتراف بالإنسان كانسان مهما كان دينه. ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾[1].
- الاعتراف بتعدد الأديان مهما كانت عقائدهم: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾[2].

(١) سورة الإسراء الآية (٧٠).

(٢) سورة الكافرون الآية (٦).

• المطالبة بعلاقات مودة مع أهل الملل الأخرى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾[1].

إن ملل البشر كثيرة جداً ولا يمكن لأي حوار بينهم أن يبلغ اتفاقاً لاختلاف العقائد اختلافاً كبيراً. ولكن أقصر طريق لتعايش إيجابي بيننا جميعاً هو أن نلتزم جميعاً بمنظومة حقوق الإنسان العالمية.

الالتزام بهذه المنظومة يكفل لنا جميعاً التزامات واحدة وثقافة إنسانية موحدة نعامل بعضنا الآخر على أساسها. مبدأ التعايش السلمي بين الأديان، والالتزام بمكارم الأخلاق، والالتزام بمنظومة حقوق الإنسان، واحترام سلامة البيئة الطبيعية، وفض الاختلافات بطرق سلمية، ومحاسبة الجناة جنائياً على الجرائم ضد الإنسانية. هذه المفاهيم ينبغي أن تمثل معاهدة أممية قيمية للبشرية.

الأديان الإبراهيمية:

الصهيونية، والصليبية، وجهاد الطلب، مواقف استقطاب سياسي لا تلزمنا به الأديان الإبراهيمية: اليهودية، والمسيحية، والإسلام.

المطلوب أن نتحرك بجدية تامة لتأكيد المعاني الموحدة للأديان الإبراهيمية. هنالك مفكرون جادون في الثقافة الغربية نشروا كتباً جيدة في هذا الصدد:

• أ. د. رينهارد لاوت نشر كتاباً بعنوان «إبراهيم وأبناء عهده مع الله» أكد فيه من نصوص التوراة أن عهد الله لم يكن مع إبراهيم وإسحاق وحدهما بل ومع إسماعيل كذلك. ووعد الله في التوراة بمباركة إسماعيل وأن يكثره مثل نجوم السماء. هذا معناه إذا لم يتنبأ محمد ﷺ لا يصدق هذا الوعد. الكتاب كله مرافعة قوية تؤكد بشرى إلهية ببركة إسماعيل عليه السلام وذريته.

***

(١) سورة الممتحنة الآية (٨).

• ونشر الأستاذ روبرت شدنقر[1] كتاباً بعنوان: «هل كان المسيح مسلماً؟» جاء فيه أن المسيح (ع) كان ثائراً ضد القمع الروماني والظلم الاجتماعي. وقال إن السيد المسيح أعلن أنه موحد كسائر اليهود. هذان العاملان التوحيد لله والعدالة الاجتماعية هما ما يميز عقيدة الإسلام وفي هذين الأمرين فإن السيد المسيح نفسه كان موحداً وثائراً ضد الظلم الاجتماعي. هذا جامع بين المسيح (ع) والدعوة الإسلامية.

• من جانبنا نحن المسلمين الآية واضحة: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[2].

هذه أسس يمكن التأسيس عليها للدعوة لإخاء إبراهيمي يدعم الإخاء الإنساني المطلوب ويعمل على إبطال النبوءات في الأديان الثلاثة التي تنذر بيوم فاصل فيه تنتصر ملتهم على الملل الأخرى بإبادة الآخرين. هذا المصير الدموي لا يناسب تقدم الإنسان نحو الرقي. وتقدم الإنسانية نحو الاخاء بل يمثل لوثة روحية أخلاقية: أن إرادة الله تقود الإنسانية إلى محرقة لا تليق بالرحمن الرحيم ولا تليق بقوله ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ﴾[3]. المحرقة الكبرى الموعودة تليق بإله سادي تخالف تماماً صورته سبحانه وتعالى: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾[4] كما قال الحكيم:

---

(١) الدكتور روبرت شيدينقر **Ropert F. Shedinger**: عمل رئيساً لقسم الأديان والعقائد بجامعة لوثر بولاية أيوا الأمريكية.

Robert F. Shidinger. Was Jesus a Muslim? *Questioning Categories in the Study of Religion*(Fortress Press, 2009.

(٢) سورة آل عمران الآية (٨٤، ٨٥).

(٣) سورة الإسراء الآية (٧٠).

(٤) سورة الأعراف الآية (١٥٦).

يَا عظيمْ الذَّنْبِ عَفْوُ اللَّهِ مِنْ ذَنْبِك أَكْبَرْ
أَكْبَرْ الأشياءِ فِي أَصْغر عفو اللَّه تَصْغُر

إذا كانت إقامة الدين هكذا دماء وحريق فما أجدر داعش أن تكون بدلها مقدمات من جنسها: لا لداعش ولا لحريق البشرية.

إن اليقظة الفكرية، والصحوة الدينية، كلاهما مطلوب لتحرير حركات الغلو، والتطرف، والإرعاب، من حواضن ثقافية، ودينية، تمنح أعمالهم شرعية. فالاعتقاد، مهما كان باطلاً، يجعل صاحبة يرتكب أفظع الأعمال ويعتقد أن ما يفعله هو عين الحق. لذلك قال أحد فلاسفة ألمانيا، نيتشه[1]: الإيديولوجية أعدى للحقيقة من الكذب.

الوافد من العصر:

محصول الإنسانية في كل جوانب الحياة جزء من مقصود الآية: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾[2]. والحكمة متاحة للبشر أجمعين غير مرتبطة بوحي: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[3].

وفي الأثر الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق الناس بها. وفي مجال الانفتاح على المنافع قال الشيخ المراغي: «ائتوني بأي شيء فيه منفعة للناس آتيكم بجواز الأخذ به في الشريعة».

إن فيما نعرف من أفكار وممارسات حضارة الإنسان الحديثة المبادئ الآتية: اللبرالية، العلمانية، الديمقراطية، الاشتراكية، المساواة بين الرجال والنساء، حرية

(١) فريدريش فيلهيلم نيتشه (١٨٤٤ - ١٩٠٠م): فيلسوف ألماني، ناقد ثقافي، شاعر، وملحن مهتم بعلم النفس. يُعدّ من بين أكبر فلاسفة الغرب في القرن التاسع عشر.
(٢) سورة الذاريات الآيتان (٢٠، ٢١).
(٣) سورة البقرة الآية (٢٦٩).

البحث العلمي والتكنولوجي، العلاقات الدولية المؤسسة على السلام والتعاون الدولي.

اللبرالية:

اللبرالية هي مبدأ حرية الفرد الشخصية وكفالة الحريات العامة في التعبير، والتنقل، والتنظيم، وكسب المعيشة، بلا تدخل من الجماعة.

هنالك مبادئ لبرالية في الإسلام مثل قوله تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾[1]. ومقولة الرسول ﷺ للصحابي: «اسْتَفْتِ قَلْبَكَ وَاسْتَفْتِ نَفْسَكَ» ثَلاثَ مَرَّاتٍ «الْبِرُّ مَا اطْمَأَنَّتْ إِلَيْهِ النَّفْسُ وَالإِثْمُ مَا حَاكَ فِي النَّفْسِ وَتَرَدَّدَ فِي الصَّدْرِ وَإِنْ أَفْتَاكَ النَّاسُ وَأَفْتَوْكَ»[2]، وحرية التملك مكفولة وحرية التنقل كذلك. ولكن اللبرالية مبدأ مثالي لا يوجد أبداً بلا قيد. تقيده حريات الآخرين ألا يعتدي عليها، وتقيده مصلحة الجماعة.

العلمانية:

العلمانية اشتقاق من غير قياس من عالم. ومعناها أن المعرفة الحقيقة هي التي نلقطها بحواسنا وتعقلها عقولنا. وعلى هذا الأساس يكون تعاملنا مع الحياة بلا دور لعالم الغيب.

إن في تراثنا الثقافي مقولات علمانية، مثلاً، ما قاله أبو العلاء:

يرْتجي النـاسُ أن يقـومَ إمـامٌ ... نـاطقٌ، في الكتيبـةِ الخرْسـاءِ
كَذَبَ الظـنُّ، لا إمـامَ سـوى العقـلِ ... مشـيراً في صـبْحه والمسـاءِ

قال بيتر بيرقر أحد مؤسسي الفكرة العلمانية: توهمنا أن العلمانية هي شرط الديمقراطية. ولكن تبينا أن الشرط هو التعددية.

(١) سورة الكهف الآية (٢٩).
(٢) رواه أحمد.

وقال تشارلس تيلور[1] وهو كذلك علماني: العلمانية التي تنكر حق أصحاب المرجعية الدينية في التعبير عن أهدافهم تخون مبادئها. على أن يقبلوا حقوق الآخرين.

كما في العلمانية كذلك في الإسلام فإن العقل والتجربة هما مناط المعرفة في عالم الشهادة. ولكن العلمانية الأصولية لا تقف عند هذا الحد، بل تنكر عالم الغيب والأسس غير النفعية للأخلاق. التعايش والتفاهم مع العلمانية المعتدلة ممكن بل ضروري.

الديمقراطية:

هنالك مبادئ إسلامية مشتركة فقد مورس مبدأ الانتخاب كما فعل النبي محمد ﷺ لدى اختيار النقباء، ومورس مبدأ الأغلبية كما فعل عمر ﷺ بين الستة المفوضين لاختيار الخليفة. ومورس رأي الجماعة كما في مبدأ الشورى الذي مارسه النبي محمد ﷺ دون انقطاع.

ولكن الديمقراطية توجب أن تكفل للناس حقوق الإنسان، وهي تستند لخمسة أصول: الكرامة، والحرية، والعدالة، والمساواة، والسلام؛ وهي مكفولة في نصوص الوحي الإسلامي.

والديمقراطية توجب الفصل بين السلطات الثلاث: التنفيذية، والتشريعية، والقضائية، ولا سوابق مماثلة لها في الإسلام ولكنها من استحقاقات العدالة والعدالة من مقاصد الشريعة وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

قال الذين يرفضون الديمقراطية ويكفرون دعاتها لأنها تجعل الأمر بيد الناس لا بيد الله. هذا احتجاج باطل فمقولة: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾[2] تجعل الأمر بيد

(١) ماك آرثر تشارلز تايلور (ولد ١٩٤٨م) رئيس ليبريا السابق اتهم بارتكاب جرائم حرب ويحاكم الآن في هولندا.

(٢) سورة الشورى الآية (٣٨).

الناس وهم الذين يراعون إرادة الله باختيارهم. الديمقراطية مع ما توجب من استحقاقات آلية. وعلى أية حال لا يوجد نظام ديمقراطي لا يضع للناس قيوداً باختيارهم. مبادئ الإسلام تتقبل الديمقراطية اللهم إلا في نظر قوم يحجبهم الانكفاء عن إدراك قيمة الديمقراطية في حسم الاختلافات سلمياً وإدراك رحابة الإسلام في السماح بذلك.

روى الشيخ محمد الغزالي[1] أنه في محاضرة في الجزائر قال: حبذا لو أن الصحابيين على ومعاوية احتكما للصناديق الانتخابية بدل القتال. تصدى له أحد الحاضرين قائلاً: هذه ليست من السنة! رد عليه: وهل اقتتال المسلمين من السنة؟

الاشتراكية:

قال ولفرد سميث[2] حقيقة وهي أن الإسلام كان أكبر محاولة في التاريخ لتحقيق العدل الاجتماعي.

الماركسية كانت صرخة قوية لإدانة المظالم الطبقية التي صحبت نشأة النظام الرأسمالي. وكانت تلك الصرخة في محلها لأن الظلم الاجتماعي كان على أشده.

وكانت الماركسية كمنهاج تطبق القاعدة الخلدونية بأن الوجود الطبيعي والاجتماعي يخضع لقوانين حاول ماركس[3] استنباطها، ولكنه أخطأ في ثلاثة أمور: أنه اعتبر المادة هي أصل ما في الوجود الطبيعي والاجتماعي. وهذا غير

(١) محمد الغزالي: محمد الغزالي (١٣٣٥- ١٤١٦هـ/ سبتمبر ١٩١٧- ١٩٩٦م): عالم ومفكر إسلامي مصري، ومن أبرز العلماء والدعاة في العصر الحديث.

(٢) ولفرد سميث (١٩١٦- ٢٠٠٠م) Wilfred Cantwell Smith، أستاذ جامعي كندي للأديان المقارنة، كان مدير مركز هارفارد لدراسة الأديان العالمية في الفترة (١٩٦٤-١٩٧٣م)، من أبرز رموز حقله في القرن العشرين..

(٣) كارل ماركس Karl Marx (٥ مايو ١٨١٨م-١٤ مارس١٨٨٣م)، ألماني، من أهم الفلاسفة الأوربيين في القرن التاسع عشر ويعتبر كتابه "رأس المال" أهم كتاب في الماركسية والفكر الشيوعي.

صحيح. كما اعتبر العمل وحده صانع القيمة الاقتصادية وهذا غير صحيح. واعتبر أن الرأسمالية سوف تستمر في استنزاف الأيدي العاملة حتى تثور وهذا أيضاً غير صحيح.

ولكن بصرف النظر عن نظريات ماركس فإن المبدأ الذي أشار إليه بأن الصراع حول المكسب الاقتصادي إذا غيب العدل يدمر السلام الاجتماعي صحيح. قال توماس بيكتي في كتابه «رأس المال في القرن الحادي والعشرين»[1]: إن عدم توازن توزيع الثروة داخل البلدان وفيما بينها لا يمكن تدارك عواقبه المدمرة إلا بتوزيع عادل للثروة، أو فإن إهمال هذا الجانب معناه الاستعداد لفكرويات عدالية تدفع لمواجهات ذات أسباب اجتماعية. كما قال حافظ إبراهيم:

أَيُّها المُصْلِحُونَ ضاقَ بنا العَيْشُ ... ولَمْ تُحسِنُوا عليه القيامَا
أيها المُصْلِحُونَ أصْلَحْتُمُ الأرْضَ ... وبِتُّمْ عن النُّفوسِ نيامَا
أصْلِحوا أنفُسَا أضرَّ بِهَا الفقْرُ ... وأحْيا بمَوتِها الآثامَا

هذه المعاني واردة بشدة في القرآن، والسنة، وأقوال كثير من علماء المسلمين.

ما نشهده اليوم في المنطقة من المحيط إلى الخليج من فقر، وعطالة، وسوء توزيع للثروة والدخل ينذر بعواقب وخيمة.

في هذا الصدد إن للفكر الاشتراكي دوراً مهماً في بناء المجتمعات.

إن لليسار في المنطقة دوراً تنويرياً لأنه:

- ساهم في بناء التنظيم السياسي الحديث، مثل مكتب سياسي، كوادر..الخ.
- ساهم في ريادة قضايا استنارة اجتماعية، مثلاً، في أمر المرأة.
- ساهم في المطالبة باستقلال القرار الوطني.
- رافع من أجل عقد اجتماعي عدالي.

(1) Thomas Piketty ,***Capital in the Twenty-First Century, 2013***

ولكنه إذ ربط هذه المساهمات البناءة بالأيديولوجية الشيوعية أوجد أمامهاً عقبات.

الأيدلوجيات تنشأ في بيئاتها الفكرية والاجتماعية وتتنقل في أماكن وأزمان أخرى، والعلة أن الموالين لها تنشأ عندهم «أوصولية» ملزمة تحول دون المرونة المطلوبة مراعاة للواقع الزماني والمكاني الجديد.

كنا في سجن كوبر عندما سقط حائط برلين في عام ١٩٨٩م، وبعده طلبت من زملائي في السجن من أعضاء الحزب الشيوعي اجتماعاً حضروه بقيادة الصديق المرحوم محمد إبراهيم نقد. قلت لهم إن لليسار في السودان رأسمال اجتماعي وهذه فرصة أن تقوموا بمراجعة فالدين ليس دائماً رجعياً من الناحية الاجتماعية. والرأسمالية منتجة ولكنها ظالمة في التوزيع، ولكنها قابلة للترشيد فالديمقراطية تمنح فرصة للطبقات المحرومة أن تقود، والوطنية لا يمكن إذابتها نهائياً في الأممية فماذا لو قمتم بمراجعات في أهم هذه الأمور ليقوم اليسار بدوره في إطار ديمقراطي. أنكروا حديثي وقلت لهم إذن أكتب لكم وتردون على كتابة توثيقاً للتاريخ، وقد كان. ومرت الأيام والتقاني الأخ نقد في مأتم في الخرطوم ٣ وقال لي: اعتذر لك أن لم نعط رأيك أهمية!

المرأة:

المعاهدات الدولية بخصوص المرأة كثيرة أهمها سيداو ومعناها إزالة كافة أشكال التمييز ضد المرأة.

هنالك نصوص إسلامية تقول بالمساواة في الإنسانية والإيمانية بين الرجال والنساء كقوله تعالى: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾[١] وقوله: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ﴾[٢] وقول النبي

(١) سورة التوبة الآية (٧١).

(٢) سورة آل عمران الآية (١٩٥).

محمد ﷺ: (إِنَّمَا النِّسَاءُ شَقَائِقُ الرِّجَال)[1].

وهنالك نصوص تشتمل على تمييز كقوله تعالى: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾[2].

ولكن بالاحتكام لمقاصد الشريعة نجد أساساً للمساواة كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾[3].

إن نصوص القرآن فيها المحكم والمتشابه. المحكم هو أم الكتاب أي قصد الكتاب: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾[4].

هيئة شئون الأنصار كيان شعبي للأنصار وهم لا يصفون أنفسهم بطائفة لأن الجماعة مبدئياً مفتوحة لكل الذين آمنوا على أساس الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ﴾[5].

ومع أن الهيئة تنسب لكيانات السودان الدينية والتقليدية فإنها بعيدة كل البعد عن النهج التقليدي، وتحمل راية الإحياء الديني، لذلك فقد طبقت نظام الشورى في كل أمرها، وصارت كافة مؤسساتها بما في ذلك الإمامة منتخبة.

نظمت هيئة شؤون الأنصار ورشة لدراسة معاهدة سيداو، وبعد الدراسة قررت قبولها مع إضافات لها لإدخال الاعتبارات الروحية والأخلاقية.

وفي الدراسة تعرضنا لتحفظات بعض الدول الإسلامية على ٦ بنود في المعاهدة هي:

(أ) المادة ٢ من المعاهدة والتي تنص على: عدم التمييز بين البشر. التحفظ

(١) سنن أبو داود.
(٢) سورة البقرة الآية (٢٢٨).
(٣) سورة الحجرات الآية (١٣).
(٤) سورة آل عمران الآية (٧).
(٥) سورة الصف الآية (١٤).

على هذه المادة باطل.

(ب)المادة ٧: إلزام الدستور بإزالة أية تمييز ضد المرأة. التحفظ على هذه المادة باطل.

(ج) المادة ٩: أن يكون للنساء حق في الجنسية لهن ولأطفالهن. أيضاً لا معنى للتحفظ هنا.

(د) المادة ١٥: المساواة أمام القانون وإبرام العقود. وهذا جزء من المساواة في المواطنة.

(ه) المادة ١٦: المساواة في أمور الزواج. والزواج في الشريعة عقد مدني يعتمد على إرادة المتعاقدين. وتحديد سن أدنى للزواج وهذا أيضاً ما تتطلبه الشريعة بقوله: ﴿وَٱبْتَلُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ﴾[1] فالنكاح محدد بمرحلة زمانية معينة.

(و) المادة ٢٩: التحكيم بين الدول الأطراف في المعاهدة. ولا معنى للتحفظ في هذه المادة فكل خلاف أولى به التحكيم.

الأفريقانية:

اشتق اسم أفريقيا من اسم شخص في شمال أفريقيا. ولكن هنالك نزعة لربط الأفريقية بالإثنية وهذا باطل، لأن الأفريقية تصنيف جيوسياسي وتترتب عليه علاقات يرعاها الاتحاد الأفريقي، وأفريقيا بهذا المعنى تقوم على أساس التعددية الدينية، والثقافية، والاثنية. وأي اعتبار يناقض أفريقيا التعددية هذه يمزق القارة تمزيقاً يحقق ما سعى إليه الاحتلال الأجنبي على قاعدة «فرق تسد».

دعاة الوحدة الأفريقية الحقيقيون اعتبروا أفريقيا كياناً جيوساسياً جامعاً لشقي القارة شمالها وجنوبها. ولكن جاء قادة متأثرون بعقدة اللون وعرفوا الأفريقانية تعريفاً لونياً بقولهم:

(١) سورة النساء الآية (٦).

- الأفريقي الأصلي هو ساكن جنوب الصحراء.
- والأفريقي رقم اثنين هم الذين هجروا لأمريكا وجذر الهند الغربية.
- والأفريقي رقم ثلاثة هم سكان شمال أفريقيا.
- والأفريقي رقم أربعة هم سكان أفريقيا من البيض.

حرية البحث العلمي والتكنولوجي:

التقدم في العلوم الطبيعية من إنجازات الإنسانية كلها. صحيح خاضت أوربا أشرس المعارك لتحقيق حرية البحث العلمي والتكنولوجي بصورة غير مسبوقة في التاريخ.

والمدهش أن قسوة القمع لحرية البحث العلمي والتكنولوجي في تاريخ أوربا ساهمت في انتصار حرية البحث العلمي.

الشاهد: حكم على برونو[1] العالم الايطالي بأن يحرق بالنار لمخالفته للدين. قال وهو في الطريق للمحرقة: أيها الغباء المقدس، أنتم وحدكم تفعلون للتقدم وإصلاح النفوس أكثر مما يفعل الإبداع البشري والعلم.

إن من أهم عوامل تفوق الحضارة الغربية انتصار حرية البحث العلمي والتكنولوجي فيها. حرية البحث العلمي والتكنولوجي مبدأ ينبغي أن نطبقه دون أي تحفظ.

كنت وصديق من الأخوان المسلمين في الطريق إلى لندن. وعندما ركبنا طائرة ايربص وهي هيكل ضخم شاهد على تقدم تكنولوجي هائل قال لي متسائلاً: هل يعقل أن من أبدع هذا الانجاز يدخل النار؟ قلت له الآية: ﴿لَيْسُوا سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ

(١) جوردانو برونو (نولانو) (١٥٤٨ – ١٦٠٠م): راهب وفيلسوف إيطالي شهير حكم علية بالهرطقة من الكنيسة الكاثوليكية، لاعتناقه نظرية كوبرنيكوس عن دوران الأرض.

ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴾[1]. الشاهد في هذا ما يفعلوا من خير فلن يكفروه أي ينكر لهم. قال النبي ﷺ: « الْخَلْقُ عِيَالُ اللَّهِ، فَأَحَبُّهُمْ إِلَى اللَّهِ أَنْفَعُهُمْ لِعِيَالِهِ»[2]. كم من الخير فعل الشخص الذي اكتشف «التخدير» فصار الإنسان يفتح صدره وبطنه ورأسه للجراحة دون أن يشعر بألم؟

جاء في حديث نبوي رواه أحمد في كتاب الفتن بَاب تَقُومُ السَّاعَةُ وَالرُّومُ أَكْثَرُ النَّاسِ: حَدَّثَنَا عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ شُعَيْبِ بْنِ اللَّيْثِ حَدَّثَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ وَهْبٍ أَخْبَرَنِي اللَّيْثُ بْنُ سَعْدٍ حَدَّثَنِي مُوسَى بْنُ عُلَيٍّ عَنْ أَبِيهِ قَالَ قَالَ الْمُسْتَوْرِدُ الْقُرَشِيُّ عِنْدَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «تَقُومُ السَّاعَةُ وَالرُّومُ أَكْثَرُ النَّاسِ فَقَالَ لَهُ عَمْرٌو أَبْصِرْ مَا تَقُولُ قَالَ أَقُولُ مَا سَمِعْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ لَئِنْ قُلْتَ ذَلِكَ إِنَّ فِيهِمْ لَخِصَالًا أَرْبَعاً: إِنَّهُمْ لَأَحْلَمُ النَّاسِ عِنْدَ فِتْنَةٍ وَأَسْرَعُهُمْ إِفَاقَةً بَعْدَ مُصِيبَةٍ وَأَوْشَكُهُمْ كَرَّةً بَعْدَ فَرَّةٍ وَخَيْرُهُمْ لِمِسْكِينٍ وَيَتِيمٍ وَضَعِيفٍ وَخَامِسَةٌ حَسَنَةٌ جَمِيلَةٌ وَأَمْنَعُهُمْ مِنْ ظُلْمِ الْمُلُوكِ»[3].

أهم ما في هذا الحديث أنه لم يربط الكثرة بالأعداد بل بالأخلاق ومعان ثقافية. إذن هي كثرة معنوية لا عددية.

أليس مدهشاً الآن أن مسلمين بأعداد هائلة يهاجرون للغرب «الكافر» بحثاً عن الأمان؟ كان الأسلاف يصنفون بلاد المسلمين دار سلام وبلاد غير المسلمين ديار حرب. أن يحصل العكس وصمة أخلاقية وإنسانية على ديار مسلمين. ما

(١) سورة آل عمران الآية (١١٣، ١١٤، ١١٥).

(٢) مسند أبي يعلى الموصلي.

(٣) مسند الإمام أحمد في كتابه ٨/ صفحة (١٧٦-١٧٧) ط السلطانية.

أصدق السيدة انجلا ميركل[1] المستشارة الألمانية عندما قالت يوم الأحد ٣٠/ ٩/ ٢٠١٥م: «سنخبر أطفالنا أن اللاجئين السوريين هربوا من بلادهم وكانت بلاد جيرانهم أقرب لهم؟ وسنخبرهم أن هجرة السوريين إلينا كانت كهجرة المسلمين إلى الحبشة لأن فيهم حاكم نصراني لا يظلم عنده أحد».

قال أحد المسؤولين في الحكومة السودانية لأحد النازحين من بلاد الحرب في دارفور: أنتم ترحبون بزيارات الكفار لكم في معسكراتكم وتمنعون أخوانكم من المسلمين زيارتكم! رد عليه النازح: شخص أمطر قريتك بالنار واغتصب نساءك وشرد أطفالك وآخر حمل إليك الإغاثة الإنسانية والدواء والتعليم. قل أيهما الكافر؟

هذه المفارقة صارت محل تندر بين «كفار» مثل بيل غيتس المتبرع بنصف ثروته لفقراء العالم. باتريس موتسيبيه[2] المتبرع بنصف ثروته لجمعية خيرية. عليكو دانجوتى[3] المتبرع بخمسين مليون دولار لدور العجزة، وفي المقابل أثرياء عرب يشتري أحدهم لوحة سيارة بمبلغ ٥٧٧ ألف دولار للمباهاة. ومن يشتري مرسيدس مطلية بالذهب بمبلغ ٧ مليون دولار ومن يشتري جملاً بخمسة مليون ريال. أيهم الأقرب للإسلام؟ كثير من أثرياء العرب يتصرفون في أموالهم بأنانية لا تليق بمؤمن، وكثير من أثرياء غير المسلمين يتصرفون بطريقة تليق

(١) أنجيلا دوروتيا ميركل (Angela Merkel ولدت يوليو ١٩٥٤م): سياسية ألمانية وزعيمة الاتحاد الديمقراطي المسيحي، أول امراة تتولى منصب المستشار في ألمانيا؛ منذ ٢٢ نوفمبر ٢٠٠٥م.

(٢) باتريس موتسيبيه (ولد ١٩٦٤): ثري جنوب أفريقي تبلغ ثروته ٢٫٦٥ مليار دولار، وهي ثامن أكبر ثروة إفريقية، أول إفريقي يستجيب لحملة تعهد العطاء التي أطلقها عام ٢٠١٠ كل من وارن بافيت وبيل غيتس بهدف تشجيع أثرياء العالم للتبرع بجزء كبير من ثرواتهم للأعمال الخيرية.

(٣) أليكو دانجوتى (ولد ١٩٥٧م)، الحاج، رجل إعمال نيجيري تقدر ثروته بـ ٢٥ مليار دولار في ٢٠١٤م، يحتل، المرتبة الـ ٢٥ فى قائمة أثرياء العالم أغنى رجل أسود على مستوى العالم، تبرع للعجزة والأيتام ب (٥٠) مليون دولار.

بالإيمان وبالاخاء الإنساني.

علاقتنا بالآخر الدولي:

العالم القديم حكمته إمبراطوريات قامت العلاقات فيها على أساس توازن القوة. ثم تدرج الحال مع تطور الإنسانية فأقام المنتصرون في الحرب الأطلسية الأولى نظام عصبة الأمم. هذا النظام أخفق في منع الحرب الأطلسية الثانية (١٩٣٩ - ١٩٤٥م) كانت هذه الحرب الأكثر دموية في تاريخ الإنسانية، لذلك فكر المنتصرون فيها أن يقيموا نظاماً أفضل فأقاموا نظام الأمم المتحدة المؤسس على ميثاق عالمي.

الفكر الإسلامي التقليدي للعلاقات الدولية يقوم على تقسيم العالم إلى أرض سلام هي ديار المسلمين وأرض حرب هي ديار الآخرين.

ولكن في تعامل الدولة الإسلامية التاريخية مع حكومة السودان المسيحية أبرمت علاقة تقوم على العهد وصار الطرفان متعاهدين.

نصوص الوحي الإسلامي تجيز إقامة علاقات مودة مع غير المسلمين. قال تعالى: ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ [1]. والوفاء بالعهد مع المعاهدين من أحكام الإسلام: ﴿ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴾ [2].

مبدأ؟ إقامة نظام دولي مؤسس على السلام زالتعاون مبدأ إسلامي وعقلاني.

عيوب النظام الحالي:

(أ) أبرم وعدد الأمم المتحدة ٥١ دولة وهي الآن ١٩٣ دولة.

(ب)أعطيت خمس دول حق النقض في مجلس الأمن ما أحدث شللاً في دور

(١) سورة الممتحنة الآية (٨).

(٢) سورة الإسراء الآية (٣٤).

الأمم المتحدة في حماية الأمن والسلام، بل أتاح فرصة لحماية الظلم كما حصل لإسرائيل ما جعلها تمارس سياسة هولوكست ضد العرب دون تدخل دولي.

(ج) مجلس الأمن الذي يقود الأمم المتحدة معنى بحفظ الأمن بعد أن تقع المصادمات الأمنية بلا إمكانية للقيام بخطة وقائية.

(د) أكثر التحديات الأمنية لم تعد بين دول بل بين جماعات غير حكومية ليس للمجلس آلية للتعامل معها.

(ه) النظام الاقتصادي الدولي الحالي كما اعترف تقرير حوار الشمال والجنوب بقيادة ويلي برانت[1] في الثمانينات راجح لصالح الدول الغنية في الشمال على حساب دول الجنوب.

ولكن بالإضافة لعيوب نظام الأمم المتحدة الذي إذا أريد له أن يصير كامل الشرعية ينبغي أن يخضع لإصلاح يراعي العدالة ومستجدات الواقع وإلا فسوف يواجه تحديات. أقول بالإضافة لهذه المشكلة فإن الدولة الأعظم في العالم تتبع سياسات تصنع رفضاً مشروعاً:

- قال مايكل أورن[2] في كتابه عن سياسية أمريكا في الشرق الأوسط بعنوان: «القوة والإيمان، والخيال». قال: إن دعم الولايات المتحدة لإقامة دولة يهودية في وسط معاد لذلك يؤسس لقيام حروب بلا نهاية في المنطقة. الوعد الإلهي في التوراة لإبراهيم عليه السلام وعد له ولذريته وهي تشمله وتشمل ابنيه إسماعيل واسحق. هذا من ناحية القصص التوراتي. لكن القرار بالهجرة لجبل صهيون لم يكن قراراً دينياً اتخذه أحبار اليهود فهم يربطون الهجرة بآخر الزمان وظهور

(١) ويلي برانت (Willy Brandt)؛ (١٩١٣ – ١٩٩٢م): سياسي ألماني، شغل منصب مستشار ألمانيا (١٩٦٩ - ١٩٧٤)، حاز على جائزة نوبل للسلام بعد الحرب العالمية الثانية: لسياسته تجاه بلدان أوروبا الشرقية.

(٢) *مايكل أورن (ولد* مايو ١٩٥٥): مؤرخ، كاتب، سياسي، ودبلوماسي إسرائيلي.
Michael B. Oren ,Power, Faith, and Fantasy: America in the Middle East: 1776 to the Present .

المسيح. إنه قرار سياسي اتخذه ساسة يهوديون علمانيون. والحركة الصهيونية لم تكن حركة دينية بل سياسة نشأت في أوربا كرد فعل للعداء للسامية.

والقادة الذين عملوا على إقامة إسرائيل يهود علمانيون.

ووعد بلفور البريطاني للحركة الصهيونية دوافعه سياسية. وقرار الأمم المتحدة لقيام دولة إسرائيل سياسي وبدوافع سياسية أهمها التعاطف مع اليهود الذين بطشت بهم الحركة النازية في ألمانيا.

ونتيجة لهذا السياسية ارتكبت جريمة إنسانية وسياسية على حساب أهل فلسطين.

هذه السياسة الظالمة شردت الشعب الفلسطيني، وغرست عداءاً دائماً مع الدول والشعوب العربية والإسلامية.

إن هذا التوتر والتظلم والحروب المصاحبة له من أهم أسباب التطرف والعنف الذي يصحبه.

وكل المحاولات لإيجاد حل سلمي للتوتر والحروب والانتفاضات باءت بالفشل التام.

آخرها اتفاق أوسلو المعيب، الذي لم يمنع إفراغ إسرائيل لكل معانيه بفرض حصار على مخرجاته، والعمل على إفراغ القدس من سكانها العرب، والتمدد في الاستيطان في أراضيهم، ورفض حق اللاجئين في العودة بموجب القرار الدولي رقم ١٩٤. وتهديد العرب الذين بقوا في إسرائيل بعد النكبة، والتهديد المستمر للمسجد الأقصى. آخر حلقات هذا العدوان هو اقتحام صهاينة بقيادة منظمة الهيكل للمسجد الأقصى منذ ١٣/ ٩/ ٢٠١٥م وإثارة انتفاضة ثالثة.

إن الظلم الصهيوني وما يحظى به من دعم أمريكي خاصة من أهم عوامل التشدد الوطني، والقومي، والإسلامي وعلى أية حال فإن مقاومة الاحتلال

مشروعة دينياً ووضعياً.

إن استمرار هذا الظلم الفادح وعجز الدول العربية في التصدي له من أهم أسباب نزع الشرعية عنها وكذلك من أهم أسباب نزع الشرعية من النظام الدولي.

هذه الحقائق كذلك من أهم أسباب جاذبية حركات التطرف والعنف في العالمين العربي والإسلامي.

- قالت السيدة كونداليسا رايس[1] في محاضرة لها في جامعة القاهرة عام ٢٠٠٥م: إن بلادي ظلت لمدة ٦٠ عاما تدعم حكومات الطغيان في الشرق الأوسط بهدف المحافظة على الاستقرار. فما حققته وأعاقت الديمقراطية.

ولكن من أهم ما استفز مشاعر المسلمين فافرز التطرف عوامل مهمة هي: هيمنة السياسات العلمانية دولياً، ظهور تحالف إنجيلي صهيوني يوجه السياسات الأمريكية. وفي ندوة في الرياض قال الأستاذ محمد قطب: نحن نرحب بالسياسات الأمريكية العدوانية، وبالتطرف الصهيوني لأن هذه العوامل من شأنها أن توقظ المارد الإسلامي ليتصدى لهذا الظلم ويهزمه. قال هذا في عام ٢٠٠٢م.

هذا ما يفسر دور سياسات غربية معينة في إثارة التطرف في الجسم الإسلامي عامة.

أما في منطقتنا فإن للسياسة الغربية دورها المهم في رعاية القاعدة في أفغانستان كجزء من مطالب الحرب الباردة، ودورها في احتلال العراق وتطبيق سياسات أعلت شأن الشيعة والأكراد وهمشت أهل السنة ما أفرز التشدد السني على يد داعش ثم «الدولة الإسلامية».

إذن السبب هو إدارة الحرب الباردة ونتائج الاحتلال غير المشروع للعراق.

(١) كوندوليزا رايس ١٤ نوفمبر ١٩٥٤م: وزيرة خارجية الولايات المتحدة الأمريكية السابقة (٢٠٠٥ - ٢٠٠٩م)، ومستشارة للأمن القومي (٢٠٠١ - ٢٠٠٥م).

العلاقة بين المنطقة العربية والغرب:

لأول مرة في التاريخ هنالك تداخل سكاني كبير بين هذه المنطقة والغرب ولأسباب كثيرة انطلقت ظاهرة الإسلاموفوبيا[1] وهي مشاعر أشبه ما تكون باللاسامية التي واجهت اليهود في الماضي.

ومع التناقض الديمغرافي الغربي دق بعض الكتاب ناقوس الفزع بأن المنطقة الأوربية سوف تفقد هويتها لتصير بدل أوربا يورابيا. هذا ما قالت به الكاتبة بات مائير[2] وردد مثله كثيرون.

في المقابل يوجد آخرون يقولون عكس ذلك بل ينسبون نهضة أوربا نفسها لهذه العلاقة. قال روبرت بريلفوت[3] في كتابه: «تكوين الإنسانية»: «التنوير الحقيقي لأوربا حدث نتيجة للإحياء العربي الثقافي لها عبر أسبانيا»؟

وقال الأستاذ منتجمري واط في كتابه: «أثر الإسلام على أوربا العصور الوسطى»: «إن أوربا خشيت الإسلام على هويتها لذلك أنكرت دينها له وبالغت في اعتمادها على تراث اليونان وروما. علينا اليوم أن نخلص أنفسنا من هذا الزيف ونعترف بديننا الحضاري والثقافي للعالم الإسلامي».

هذا الوعي المستنير هو الذي يمكن أن يهزم الإسلاموفوبيا ويخلق مناخاً إيجابياً في التعامل بيننا.

---

(١) الفوبيا أو الرهاب مرض نفسي يعني الخوف الشديد والمتواصل من شيء أو شخص أو حالة ما. وحينما تضاف كلمة فوبيا في اللفظ تعني الخوف المرضي أو الرهاب منه. الإسلاموفوبيا تعني الخوف المرضي من الإسلام، والإسلاموفيليا تعني محبة الإسلام.

(٢) بات مائير (القاهرة ١٩٣٣م): يهودية مصرية. أول من صاغت مصطلحات الذمية (Dhimmitude)، ويورابيا (Eurabia) في إشارة إلى تحالف محتمل بين الدول العربية والأوروبية هدفه القضاء على إسرائيل.

(٣) Briffault, Robert The Making of Humanity, London 1919 – روبرت بريفلوت (١٨٧٦ - ١٩٤٠) طبيب بريطاني شارك في الحرب العالمية الأولى ثم تحول من الطب إلى الكتابات في الأنثروبولوجيا والاجتماع.

وبينما كان ممثلون للاتحاد الأوربي يتحدثون عن أهمية مواجهة الإسلام لتعزيز شعور أوربا بهويتها وهو ما يقول به دعاة تقيدا (أي أوربيون وطنيون ضد أسلمة بلدانهم) فإن مسؤولة الشؤون الخارجية في الاتحاد الأوربي السيدة فيدريكا موغيريني قالت (٢٤/ ٦/ ٢٠١٤م) في بروكسل في «مؤتمر الإسلام وأوربا» حديثاً ودياً مستنيراً قالت: الإسلام هو أوربا. وأوربا هي الإسلام قالت: إن التعددية هي مستقبل التكتل الأوربي الموحد. والإسلام له مكانه الطبيعي في المجتمع الأوربي.

في المقابل توجد كراهية الغرب أي شيطنة الغرب. الحضارة الغربية حققت للإنسانية منجزات عظيمة ما يوجب الاعتراف بها والعمل على إبرام معاهدة تعاون شامل. معاهدة يرجى أن يقترحها المفكرون الإستراتيجيون في المنطقة لتقدم بعد ذلك لصناع القرار لاعتمادها أساساً في التعامل المنسق للمصالح المشتركة.

العولمة:

أ. هنالك عولمة فرضها إدراك البشر لمصلحة مشتركة في كوكب الأرض المقام المشترك للإنسان. والأصول المشتركة للبشرية كأعماق البحار، والفضاء، والغلاف الجوي، والقطبين مملوكات للبشرية وتوجب نظرة مشتركة في التعامل معها.

ب. هنالك عولمة فرضها الوعي الإنساني بالمصير المشترك للإنسانية، وتوالت المؤتمرات العالمية لتدرس موضوعاتها المختلفة، ولتضع إستراتيجية موحدة للتعامل مع مشكلاتها. مثل: مؤتمر البيئة ١٩٩٢م، ومؤتمر السكان ١٩٩٥م، والمؤتمر الاجتماعي ١٩٩٦م وما تلاها من مؤتمرات مماثلة.

ج. هنالك العولمة التي ارتبطت بالعبارة أكثر من غيرها.. العولمة التي صنعتها ثورة المعلومات والاتصالات والمواصلات والتي حولت المعاملات التجارية، والمالية، والاستثمارية إلى سوق عالمي واحد. هذه العولمة مكنت

أصحاب السندات، والأسهم، وطلاب الصفقات التجارية من الانتقال عبر الآليات الالكترونية بسرعة مذهلة وعلى نطاق عالمي، كما مكنت الشركات متعددة الجنسية من توزيع عملياتها على نطاق عالمي، ومن نقل خياراتها الاستثمارية حيث التكلفة أقل والربح أكثر.

هذه الوجوه الثلاثة من العولمة والاستعداد لإدارة الملكية الكوكبية المشتركة، وبرنامج المصير الإنساني المشترك، والسوق العالمي الذي فتحته ثورة المعلومات والاتصالات تمثل عولمة حميدة.

هنالك عولمة خبيثة هي:

(أ) صحبت العولمة ظاهرة الرأسمالية النفاثة وهي حماسة للتنافس والربحية تندفع غير مبالية بآثار سلبية إنسانية واجتماعية لا سيما في مجالين:

- **المجال الأول:** أن تؤدي العولمة المرتبطة بالرأسمالية النفاثة إلى تراجع عن دولة الرعاية الاجتماعية. كذلك عدم الاهتمام بالآثار السلبية التي تحدثها وسائل الإنتاج الحديثة على توظيف الأيدي العاملة. لقد كانت الإصلاحات التي اتبعها النظام الرأسمالي المستنير فاهتم بمصالح القوة العاملة، واتبع برامج رعاية اجتماعية من أهم أسباب صنع السلام الاجتماعي في البلدان الرأسمالية مما أبطل نبوءات كارل ماركس[1] الصدامية. العولمة غير المرشدة سوف تقوض هذه التدابير.

- **الثاني:** تراجع الشمال المتقدم من المفاهيم والسياسات التي أوصى بها حوار الشمال والجنوب في الثمانينات وأوجبت اهتمام الشمال بالتنمية في الجنوب كوسيلة من وسائل بناء الاستقرار العالمي. مثلما حققت الرأسمالية

(١) كارل ماركس Karl Marx (٥ مايو ١٨١٨م-١٤ مارس١٨٨٣م)، ألماني، من أهم الفلاسفة الأوربيين في القرن التاسع عشر ويعتبر كتابه «رأس المال» أهم كتاب في الماركسية والفكر الشيوعي.

سلاماً اجتماعياً في أوطانها بسياسات نقابية مستنيرة وبرامج رعاية اجتماعية متقدمة فإن الدول الغنية مطالبة بالاهتمام بتنمية الجنوب الفقير لبناء السلام والاستقرار في العالم. ولكن الراجح في ظل تيارات العولمة هو ترك هذه الأمور كلها لعوامل السوق الحر.. ولكن السوق في البلدان الفقيرة ليس حراً كما يجب. كما أن العالم المتقدم لا يسمح بحركة الأيدي العاملة بحرية، وتمنع قوانين الملكية الفكرية انتقال التكنولوجيا بحرية.

(ب)توزيع الثروة والقوة الاقتصادية في العالم توزيع غير متوازن. أتاحت العولمة بإمكانات الاتصال والمعلومات والمواصلات للقوة الأعظم في العالم فرصة هيمنة إعلامية بحيث تستطيع غسل أدمغة الآخرين. وأتاحت لها فرصة هيمنة اقتصادية وإستراتيجية لم يعهد التاريخ مثلها من قبل. إن العولمة في هذا المجال صارت هيمنة الأقوى والأقدر.

(ج) وأتاحت وسائل العولمة فرصاً كبيرة للجريمة المنظمة فصارت معولمة من حيث التخطيط، والتدريب، والتنفيذ.

(د) ثورة المعلومات والاتصالات أتاحت فرصة لثقافة التسلية غير المراعية لأية ضوابط أخلاقية لتصير هي ثقافة العالم.

هذه الوجوه الأربعة من العولمة الرأسمالية النفاثة، واختلال ميزان الثروة، والقوة العالمي، والجريمة الدولية المنظمة، وثقافة التسلية السادرة، تمثل عولمة خبيثة. ومن شأنها إثارة مشاعر مضادة للعولمة تعبر عنها حركات التطرف والعنف.